جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الاختلاف في الاستثناء بإلا اتصالًا وانقطاعًا في الربع الأخير من القرآن الكريم وأثره في الدلالة

إعداد

د. طه عبدالرحمن عمر عبدالرحمن

قسم أصول اللغة ـ كلية اللغة العربية – جامعة الأزهر

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الثاني ٠٠أكتوبر)
(الجزء الرابع (١٤٤٥هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة(ISSN)2536-9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٦٢٧١/٢٠٢٣م

الاختلاف في الاستثناء بإلا اتصالًا وانقطاعًا في الربع الأخير من القرآن الكريم وأثره في الدلالة

طه عبدالرحمن عمر عبدالرحمن
قسم أصول اللغة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، أسيوط، مصر.
البريد الإلكتروني:taha-abdelrhman.47@azhar.edu.eg

الملخص:

فمما لا شك فيه أن الله شرّف العربية بنزول كلامه بها، والقرآن زاخر بالأساليب الرائقة، وهذه الأساليب في حاجة إلي دراسة حتي تكون دليلًا علي إعجازه، ومن هذه الأساليب الاستثناء، وقد عزف كثير من الباحثين عن ارتياد الأساليب النحوية والكشف عن دلالاتها، فأردت أن أخوض في غمار هذا الموضوع فجاء البحث بعنوان: (الاختلاف في الاستثناء بإلا اتصالًا وانقطاعًا في الربع الأخير من القرآن الكريم وأثره في الدلالة). وقد كان من عوامل اختياري لهذا الموضوع: ما وجدته من ثراء للمعني القرآني بسبب التنوع والاختلاف في تفسير أسلوب الاستثناء فيه، وكذلك ما وجدته من تنكر البعض للاستثناء المنقطع وما سوف يترتب علي ذلك من خلاف في بعض الفروع الفقهية، وكان منهجي في هذا البحث منهجًا وصفيًا تحليليًا، وكان من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، أولًا: خطأ ما ذهب إليه بعض العلماء من إنكار الاستثناء المنقطع واجتهادهم في جعل ما ظاهره الانقطاع أن يكون من قبيل المتصل. ثانيًا: ما ذهب إليه بعض النحاة في التفرقة بين الاستثناء المتصل والمنقطع باعتبار الجنس يحتاج إلي إعادة نظر، والأولي أن يكون الفرق بينهما باعتباري الجِنْسِ ونقيض الْحُكْمِ. ثالثًا: قوة دلالة الاستثناء المنقطع وتأكيده لما قبله، فلو قيل: حضر القوم إلا الأبنية، فقد أكّد حضور القوم بقوله: إلا الأبنية، وكان المعني أن القوم جميعًا حضروا حتي كأنه لم يبق إلا الأبنية أن تحضر.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الاستثناء، الاتصال، الانقطاع، الدلالة.

The difference in the exception except for a connection and a break in the last quarter of the Holy Qur'an and its effect on the meaning

Taha Abdul Rahman Omar Abdul Rahman

Department of Linguistics, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Assiut, Egypt.

Email: *taha-abdelrhman.47@azhar.edu.eg*

Abstract:

There is no doubt that God honored Arabic by revealing His words in it, and the Qur'an is full of wonderful methods, and these methods need to be studied in order to be evidence of His miracle, and among these methods is the exception, and many researchers have been reluctant to resort to grammatical methods and reveal their meanings, so I wanted to delve into In the context of this topic, the research was entitled: (The difference in the exception except for a connection and a break in the last quarter of the Holy Qur'an and its effect on significance). One of the factors in my choosing this topic was: what I found of the richness of the Qur'anic meaning due to the diversity and difference in interpreting the method of exception in it, as well as what I found of some denying the interrupted exception and the disagreement that will result from that in some branches of jurisprudence. My methodology in this research was a descriptive approach. Analytically, one of the most important findings of the study was, firstly: the error of what some scholars have taken in denying the discontinuous exception and their efforts to make what appears to be discontinuity be something like a continuous one. Second: What some grammarians have argued in distinguishing between continuous and discontinuous exceptions, based on gender, needs

to be reconsidered. It is preferable for the difference between them to be based on gender and the opposite of the ruling. Third: The strength of the significance of the interrupted exception and its confirmation of what came before it. If it was said: The people were present except the buildings, then the presence of the people was confirmed by saying: Except the buildings, and what was meant was that all of the people were present until it was as if only the buildings remained to be present.

Keywords: ***The Qur'an, Exception, Connection, Interruption, Significance.***

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

بسم الله أبدأ القول مفتتحًا، ثم الصلاة والسلام علي المبعوث للأمم، وآله وأصحابه وكل من انتمى إلي الدين القويم موحدًا، واستثنى من الآلهة إلهًا واحدًا جلّ الإله الأكبر، ادعوك ربي وفي الدعاء لي أمل، أرجو القبول ولا أحرم من النعم.

وبعد،،،

فمما لا شك فيه أن الله- تعالي- شرّف اللغة العربية بنزول كلامه بها علي حبيبه (ﷺ)، واصطفاها سبحانه وجعلها وعاءً لخطابه للإنس والجن إشارةً إلى عالميتها، والعلماء منذ ذلك الحين التفوا حول كلامه محاولين- قدر المستطاع- إظهار سر إعجازه والكشف عن مخبوئه، والقرآن الكريم بحر زاخر بالدرر وثري بالأساليب الرائقة التي جعلته حقًا معجزة خالدة، وهذه الأساليب في حاجة إلي دراسة حتي تكون دليلًا علي إعجازه، ومن هذه الأساليب أسلوب الاستثناء، وقد كان مثار جدل بين العلماء نتيجة لعدم اتفاقهم حول تحديد ماهيته اتصالًا وانقطاعًا كما سيتضح، وتكمن أهمية البحث في ارتباط مسائل النحو بمسائل اللغة، فالعلاقة بينهما وثيقة، وقد عزف كثير من الباحثين عن ارتياد الأساليب النحوية والكشف عن دلالاتها، فأردت أن أخوض في غمار هذا الموضوع من خلال بعض آيات من القرآن الكريم (وهي السبعة أجزاء ونصف الأخيرة من القرآن الكريم) حتى عثرت على ضالتي فجاء البحث بعنوان: (الاختلاف في الاستثناء بإلا اتصالًا وانقطاعًا في الربع الأخير من القرآن الكريم وأثره في الدلالة)، وقد كان من عوامل اختياري لهذا الموضوع- بعد كونه في دراسة أشرف الكتب وأعلاها- ما وجدته من ثراء للمعني القرآني بسبب التنوع والاختلاف في تفسير أسلوب الاستثناء فيه، فتزاحمت الدلالات وتعددت

التأويلات في الآية الواحدة نتيجة اختلافهم في أسلوب الاستثناء اتصالًا وانقطاعًا[١]، ومن دوافع اختياري لهذا الموضوع ما وجدته من تنكر البعض للاستثناء المنقطع وما سوف يترتب علي ذلك من خلاف في بعض الفروع الفقهية، وأيضًا من دوافع اختياري لهذا الموضوع ما وجدته من خلاف طويل بين النحاة وكذا المفسرين- أخذًا وردًّا- حول ما إذا كانت الآية القرآنية من باب الاستثناء المتصل أو المنقطع فأردت أن أبين الرأي الراجح من خلال فرض قيمة واحدة يبرزها السياق، وكان منهجي في هذا البحث منهجًا وصفيًا تحليليًا، وقد اقتضت طبيعته أن يأتي في مقدمة وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس بالمصادر التي اعتمد عليها البحث على النحو التالي:

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع، ودوافع اختياري له، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة البحث.

التمهيد: الاستثناء تعريف وترجمة.

المبحث الأول: أثر السياق في ترجيح اتصال الاستثناء في الآيات محل البحث.

المبحث الثاني: أثر السياق في ترجيح انقطاع الاستثناء في الآيات محل البحث.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها من خلال البحث.

فهرس المصادر: وتضمن أهم المصادر التي استعان بها البحث.

وبعد، فهذا بحث متواضع أردت به المساهمة في خدمة كتاب الله، وهذا مبلغ علمي، أسأل الله العلي العظيم أن يعلمني من لدنه علمًا، وأن يرزقني فهم أسرار آياته:﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

---

(١) ينبغي معرفة أن البحث سوف يقتصر علي مواطن اختلاف العلماء حول أسلوب الاستثناء اتصالًا وانقطاعًا؛ لأنه يترتب علي هذا أن تتفتق ظلال دلالية بناء علي هذا الاختلاف، أما ما اتفقوا علي اتصاله أو انقطاعه فلا يدخل في نطاق البحث.

تمهيد

الاستثناء تعريف وترجمة

تعريف الاستثناء: الاستثناء في اللغة:" أَصله من: ثَنَيْت الشَّيء، إِذا حَنَيْته وعَطَفته وطَوَيْته... وكُلّ شَيْء عَطَفْته، فقد ثَنَيْته"(١)، "وَمَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ قِيَاسِ الْبَابِ... لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: خَرَجَ النَّاسُ، فَفِي النَّاسِ زَيْدٌ وَعَمْرٌو، فَإِذَا قُلْتَ: إِلَّا زَيْدًا، فَقَدْ ذَكَرْتَ بِهِ زَيْدًا مَرَّةً أُخْرَى ذِكْرًا ظَاهِرًا، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ: إِنَّهُ خَرَجَ مِمَّا دَخَلَ فِيهِ، فَعَمِلَ فِيهِ مَا عَمِلَ عِشْرُونَ فِي الدِّرْهَمِ، وَهَذَا كَلَامٌ صَحِيحٌ مُسْتَقِيمٌ"(٢)، وَعَلَى هَذَا فَالِاسْتِثْنَاءُ صَرْفُ الْعَامِلِ عَنْ تَنَاوُلِ الْمُسْتَثْنَى وَيَكُونُ حَقِيقَةً فِي الْمُتَّصِلِ، وَفِي الْمُنْفَصِلِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ إِلَّا هِيَ الَّتِي عَدَّتْ الْفِعْلَ إِلَى الِاسْمِ حَتَّى نَصَبَهُ فَكَانَتْ بِمَنْزِلَةِ الْهَمْزَةِ فِي التَّعْدِيَةِ وَالْهَمْزَةُ تُعَدِّي الْفِعْلَ إِلَى الْجِنْسِ وَغَيْرِ الْجِنْسِ حَقِيقَةً وِفَاقًا فَكَذَلِكَ مَا هُوَ بِمَنْزِلَتِهَا"(٣).

تعريف الاستثناء في اصطلاح النحويين: مصطلح الاستثناء أطلقه النحويون علي أحد أبواب علم النحو، وهم في تعريفهم الاصطلاحي له تأثروا بمعناه اللغوي، فذكر ابن يعيش أنه" استفعال من ثناه عن الأمر يثنيه إذا صرفه عنه، فالاستثناء صرف اللفظ عن عمومه بإخراج الْمُسْتَثْنَى من أن يتناوله الأول"(٤)، وعرفه ابن مالك تعريفًا أكثر شمولية فقال:" المُخْرَج تحقيقًا أو تقديرًا من مذكور أو متروك بـ(إلا) أو بمعناها بشرط الفائدة"(٥)، فتعريفه شامل لكل أدوات الاستثناء وأقسامه.

أركان الاستثناء: للاستثناء أركان أساسية لا يتم أسلوبه إلا بها، وهي أربعة:

---

(١) تهذيب اللغة الأزهري ١٥/ ٩٧(ث ن ى).

(٢) مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣٩٢ (ث ن ى).

(٣) المصباح المنير الفيومي ١/ ٨٥(ث ن ى).

(٤) شرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٧٥.

(٥) تسهيل الفوائد لابن مالك صـ١٠١.

١- المستثنى منه: وهو الاسم الواقع قبل أداة الاستثناء المنسوب إليه الحكم في الجملة.

٢- المستثنى: وهو الاسم الواقع بعد أداة الاستثناء المخرج من حكم ما قبل الأداة.

٣- الحكم: وهو المعنى المنسوب للمستثنى منه إثباتًا أو نفيًا بحيث يكون إخراج المستثنى من المستثنى منه إخراجًا من ذلك الحكم.

٤- الأداة: وهي التي يتم بها إخراج ما بعدها من حكم ما قبلها، وتعتبر الأداة ركنًا أساسيًّا لا يمكن الاستغناء عنه؛ إذ عليها يقوم الاستثناء، وهي ثلاث عشرة أداة، فمن الحروف(إلا) وهي أكثر الأدوات استعمالًا، ومن الاسماء(غير، وسِوي، وسُوي، وسواء)، ومن الأفعال(ليس، ولا يكون، وعدا وخلا المقرونتان بما)، ومن المتردد بين الأفعال والحروف(عدا وخلا العاريتان من ما)، ومما اتفق علي أنه يكون حرفًا واختلف في أنه هل يكون فعلًا(حاشا)، ومن مجموع الحرف والاسم(لاسيما)، فهذه ستة أقسام فيها ثلاث عشرة أداة [(١)].

أنواع الاستثناء: للاستثناء أنواع ثلاثة بعدة اعتبارات، فإذا لم يتقدمْهُ نفيٌ أو نَهْيٌ أو استفهامٌ، نحو: حضر الطلاب إلا محمدًا، فهو موجب، وإلا كان استثناء غير موجب. وإذا ذكر المستثنى منه في أسلوب الاستثناء فهو تام كالمثال السابق، وإلا فهو مُفَرَّغ نحو: ما حضر إلا محمدًا، وينقسم الاستثناء باعتبارِ كونِ المستثنى جزءًا من المستثنى منه أو لا إلي متصل ومنقطع، ولنا هنا وقفة؛ لأن مدار البحث عليه.

اختلفت آراء النحاة في وضع حد جامع مانع لكل من المتصل والمنقطع، فمنهم من اعتمد الجنس، فقال في حد المستثنى المتصل: هو ما كان من جنس

---

(١) ينظر: الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٠٩، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ٢/ ٢٥٠ وما بعدها، والاستغناء في الاستثناء للقرافي صـ٢٩، والنحو المصفى لمحمد عيد ١/ ٤٨٣.

المستثنى منه، والمنقطع: ما كان من غير جنسه، فمثال الأول: جاء الطلاب إلا محمدًا، ومثال الثاني: جاء الطلاب إلا حمارًا، ومن النحاة من اعتمد البعضية فقال في حد المستثنى المتصل: هو ما كان المستثنى فيه بعض المستثنى منه، والمنقطع: ما لا يكون المستثنى فيه بعض المستثنى منه، وقد رجحه ابن مالك فقال:" وذكر البعضية في قولي: وهو إذا ما كان بعضًا متصل أولى من ذكر الجنسية؛ لأن المستثنى قد يكون بعض ما هو من جنسه وهو منقطع غير متصل، كقولك: قام بنوك إلا ابن زيد، فتبين ما في ذكر البعضية من المزية على ذكر الجنسية"(١).

ومن النحاة من اعتمد الحكمية، فذكر شهاب الدين القرافي أن المتصل أن تحكم علي جنس ما حكمت به أولًا بنقيض ما حكمت به أولًا، فمتي انخرم أحد هذين القيدين كان منقطعًا، فيكون حد المنقطع: أن تحكم علي غير جنس ما حكمت عليه أولًا، أو بغير نقيض ما حكمت به أولًا، فيتحقق علي هذا التقدير أن المنقطع نقيض المتصل، وأن المتصل يجري مجري المركب، ونفي ذلك المركب بأي جزء منه كان هو المنقطع، وذكر عدة أمثلة تبين بطلان ما ذهب إليه البعض من اعتماد الجنسية في الاستثناء، ومن ذلك أن المفسرين والعلماء من الفقهاء وغيرهم يقولون في قوله تعالي:﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[الدخان:٥٦] منقطع مع أن﴿ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هي بعض أفراد الموت المتقدم؛ لأنه معرف باللام، فيعم جميع أفراد الموتة الأولي وغيرها، فهذا استثناء من الجنس وهو منقطع، فيبطل به الحدان المذكوران في المتصل والمنقطع، فيندرج في حد المتصل؛ لكونه من الجنس، وليس متصلًا فيكون الحد غير مانع ويخرج من حد المنقطع؛ لاشتراطهم المغايرة في الجنس، وهي مفقودة في الآية، فيكون الحد المذكور للمنقطع غير جامع(٢)، أما إذا اعتمدنا الحكمية فالحد

---

(١) شرح الكافية الشافية لابن مالك ١/ ٣١٥.

(٢) ينظر: الاستغناء في الاستثناء للقرافي صـ٢٩٥ وما بعدها.

جامع مانع، فمثلًا إذا قلنا: قام القوم إلا زيدًا، فزيد من جنس القوم، وحكمت أولًا بالقيام، وعلي زيد بعدم القيام، وهو نقيض القيام، فهذا متصل، وإذا قلنا: قام القوم إلا فرسًا، فالحكم وإن وقع بالنقيض علي الفرس الذي هو عدم القيام لكن الفرس ليس من جنس القوم، فكان منقطعًا، وإذا قلنا: قام القوم إلا زيدًا مسافر، كان منقطعًا أيضًا؛ لأنك حكمت علي زيد الذي هو من الجنس بغير النقيض الذي هو عدم القيام، بل بحكم آخر الذي هو السفر، فحصل الانقطاع للحكم بغير النقيض الذي هو السفر لا للحكم غير الجنس، وبهذه الطريقة يظهر معني الانقطاع في الآية المتقدمة، فالموتة الأولي وإن كانت من جنس الموت المتقدم لكن الحكم وقع بعد إلا بغير النقيض، فإن الحكم المتقدم عدم ذواق الموت في الجنة، ونقيض عدم الذواق منها الذواق فيها، ولم يحكم به بل بالذوق في الدنيا، فإن الموتة الأولي إنما ذاقوها في الدنيا، فقد حكم بغير النقيض، فكان منقطعًا للحكم بغير النقيض لا للحكم بغير الجنس(١).

وقد علق محقق كتاب شرح المقرب لابن عصفور وهو الدكتور علي محمد فاخر علي هذه الآراء والتعريفات فقال:" وتضييق دائرة المتصل بالجنس أو البعض والحكم بالنقيض، وتوسيع دائرة المنقطع بغير الجنس أو البعض والحكم بغير النقيض لا بأس به؛ لتدخل فيه شواهد عربية وآيات كثيرة حار فيها المفسرون والمعربون، فما وجدت خلافًا في النحو كخلاف النحاة والمفسرين من جعل هذه الآية أو تلك من المتصل أو المنقطع فبينما يحكم الزمخشري علي آية بأنها من المتصل يأتي أبو حيان ويذكر أنها من المنقطع، حتي دعا الشيخ محمد عضيمة أن يقول: الاستثناء

(١) ينظر: الاستغناء في الاستثناء للقرافي صـ٢٩٦ وما بعدها.

التام المحتمل للاتصال والانقطاع في القرآن الكريم أكثر من الاستثناء المتعين للاتصال، كما هو أكثر من الاستثناء المتعين للانقطاع"[(١)].

أسباب اختلاف العلماء حول اتصال الاستثناء وانقطاعه في الآية الواحد: علي الرغم من أن كثيرًا من العلماء ذكروا أن الأصل في الاستثناء الاتصال لا الانقطاع، ولا يجوز أن يُحمل على الاِنْقِطَاع إلا لدليل يدل عليه[(٢)]، لكن المتدبر لكتب النحاة وتفسير القرآن يجد أن خلاف النحاة الطويل والشاق حول ما إذا كان الشاهد من باب المتصل أو المنقطع لم يقع إلا في آيات القرآن؛ وذلك لأن العناية في الأصل موجهة إليه، ويلاحظ أنهم لا يكادون يستقرون علي رأي واحد في الاستثناء في الآية الواحدة أو المثال، فهناك من يقول باتصال الاستثناء، وهناك من يقول بانقطاعه، ومنهم من يرجح، ومنهم من لا يرجح، فالخلاف مرجعه لعدة أسباب:

١- السبب الأول عام ينسحب علي جملة القرآن الكريم، وهو أنه كتاب معجز في أسلوبه وبيانه وتراكيبه ومفرداته، لا يحيط به بشر، ولا تحده قواعد العلماء، فمهما وضعت من تعريفات وقررت من قيود ومحترزات فإن القرآن يبقى أبيًّا علي تلك القواعد والحدود يعلوها ويرقى عنها، وهذا هو الإعجاز ، ثم إن ذلك الخلاف ينشئ هذا الثراء الذي خص به كتاب الله.

٢- السبب الثاني خاص بالاستثناء، وهو ما قرره النحاة من أن الاستثناء المنقطع عائد في المعني إلي المتصل، فإذا قلت: ما فيها أحد إلا حمارًا، فمعناه: ما فيها أحد ولا ما يتبعه إلا حمارًا، ويؤيد هذا ما سبق في تعريف ابن مالك للاستثناء، فأشار أن الاستثناء المنقطع خارج مما قبله تقديرًا.

---

(١) شرح المقرب ٢/٩٢٠، وينظر: دراسات لأسلوب القران، د:محمد عضيمة ١/٣٣٧ وما بعدها.

(٢) ينظر: شرح شذور الذهب لابن هشام صـ٣٦، وعِنَايةُ القَاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي لشهاب الدين الخفاجي ٢/ ٣٢٩، والكليات للكفوي صـ ١٢٥، والعَذْبُ النَّمِير للشنقيطي ٣/١١٦.

٣- خلاف النحاة في حدود وضوابط نوعي الاستثناء المتصل والمنقطع.

٤- تقسيم الاستثناء المنقطع إلي قسمين: قسم يتصور فيه الاتصال مجازًا وقسم لا يتصور فيه الاتصال بحال، ثم بينوا أن المجاز متصور فيما يمكن اتصاله من عدة وجوه، منها مثلًا أن يكون نفيك الشيء نفيًا لما هو منه بسبب، فإذا قلت: ما في الدار أحد إلا حمارًا، فكأنك عنيت: ما في الدار أحد ولا ما لابسه، فأردت بالأحد الأحد وما لابسه، وبذلك فتح القول بالمجاز بابًا واسعًا للخلاف في نوع الاستثناء؛ لأن المجاز فيه فسحة للتأويل(١).

٥- إنكار بعض العلماء للاستثناء المنقطع، فأهملوه ولم يعترفوا به(٢)، ومن ثم اجتهدوا في جعل ما ظاهره الانقطاع من قبيل المتصل، ولذلك كثر الخلاف في آيات القرآن الكريم(٣).

---

(١) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش ١/ ٨٨٠ وما بعدها، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٢/ ٤٠٣.

(٢) ذهب الْإِمَامُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَبَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ إلي أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ الْمُنْقَطِعَ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ إخْرَاجُ مَا دَخَلَ فِي اللَّفْظِ، وَغَيْرُ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي اللَّفْظِ أَصْلًا حَتَّى يَخْرُجَ بِالِاسْتِثْنَاءِ، وجمهورُ الْأُصُولِيِّينَ علي صِحَّةِ وُقُوعِه؛ لأنه وإن كان خلاف الأصل إلا أنه فصيح شائع؛ لوروده في عدة آيات من القرآن الكريم، وكذا في كلام العرب، والَّذِينَ مَنَعُوا الاستثناء المنقطع لَمْ يَمْنَعُوهُ بِالْكُلِيَّةِ، وَإِنَّمَا قَالُوا: إنَّهُ لَيْسَ مِنْ الِاسْتِثْنَاءِ الْحَقِيقِي؛ لِأَنَّ أَدَاةَ الِاسْتِثْنَاءِ فِيهِ بِمَعْنَى(لَكِنْ) فَهُوَ إلَى الِاسْتِدْرَاكِ أَقْرَبُ مِنْهُ إلَى الِاسْتِثْنَاءِ، وقد ترتب عَلَى الْخِلَافِ فِي صِحَّةِ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ بَعْضُ الْفُرُوعِ الْفِقْهِيَّةِ، فَلَوْ أَقَرَّ رَجُلٌ لِآخَرَ فَقَالَ لَهُ: عَلَيَّ أَلْفُ دِينَارٍ إلَّا ثَوْبًا، فَعَلَى الْقَوْلِ بِعَدَمِ صِحَّةِ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ يَكُونُ قَوْلُهُ:(إلَّا ثَوْبًا) لَغْوًا وَتَلْزَمُهُ الْأَلْفُ كَامِلَةً، وَعَلَى الْقَوْلِ بِصِحَّةِ الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ لَا يُلْغَى قَوْلُهُ:(إلَّا ثَوْبًا) وَتَسْقُطُ قِيمَةُ الثَّوْبِ مِنَ الْأَلْفِ، ينظر: أضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٤٦٦ وما بعدها، وإعراب القرآن لمحيي الدين درويش ٥/ ٢٤٠.

(٣) ينظر: الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم(مدخل إلي بلاغته) د/ وليد إبراهيم حمودة صـ١٣٧٨ وما بعدها.

المبحث الأول

أثر السياق في ترجيح اتصال الاستثناء في الآيات محل البحث

للسياق- بنوعيه- دور كبير في ترجيح اتصال الاستثناء وانقطاعه؛ لأن السياق يخرج بالكلمات من محيط اللغة الساكن إلى محيط الكلام المتحرك، ويحدد قيمة أو دلالة واحدة فقط، فهو الفاصل- غالبًا- عند الالتباس في فهم النص، وسيظهر دوره في ترجيح اتصال الاستثناء في الآيات الآتية:

١- قوله تعالى:﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٨٦﴾[الزخرف].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تتحدث الآيات التي قبل هذه الآية عن بعض قبائح أقوال كفرة قريش المنافية للفطرة، وكل هذا بعد أن ذكرهم الله بنعمه، فنجدهم يعبدون أشياء خلقها ويصفون الملائكة بأنهم بنات الله، قال تعالى:﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُور مُّبِينٌ . أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَات وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ... وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ ثم سرد السياق القرآني ادعاء وقبيحة أخرى لكفار قريش؛ حيث قالوا لما أخبرهم رسول الله عن عيسى(عليه السلام) وكيف أنه خلق من غير فحل:" ما يريد محمد منا إلا أن نتخذه إلهًا نعبده كما عبدت النصارى المسيح"[(١)]. قال تعالى:﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓاْ ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ ثم أخذ في نفي ادعاء البعض كون عيسى(عليه السلام) وَلَدًا لله تعالى:﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَد فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ . سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ثم أخبر أن كل هؤلاء راجعون إليه يوم القيامة﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾، ثم نفى زعمهم أن آلهتهم من

---

(١) جامع البيان للطبري ٢١/٦٢٤.

الملائكة وغيرها تشفع لهم يوم القيامة، واتخاذهم هذا ذريعة لعبادتهم، فأعلمهم الله أن هؤلاء لا يملكون الشفاعة لأحد﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ ثم استثنى فقال:﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف المفسرون في المقصود بـ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ علي قولين: أحدهما: أن الذين يدعوهم المشركون من دون الله هم الملائكة وعيسى وعزير؛ لأنهم عبدوا من دون الله، وهذا مذهب قوم، منهم ابن عباس وسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ومجاهد، وقد رُوِيَ أَنَّ النَّضرَ بن الحارث وَنَفَرًا مَعَهُ قَالُوا: إن كان ما يقول محمدٌ حقًّا فنحن نتولَّى الملائكة فَهُم أحقُّ بالشفاعة من محمد، فأنزل الله هذه الآية، وعلى هذا القول هؤلاء لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق، وآمن على علمٍ وبصيرةٍ، والاستثناء علي هذا منقطع؛ لأن الكفار جنس ومن شهد بالحق جنس آخر.

القول الثاني: أن الذين يدعون من دونه كل معبود من دُون الله من الأصنام وغيرها وَقَوْله:﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى وَعُزَيْرٌ، وهذا مذهب قتادة والجمهور، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي عَبَدَهَا الْكُفَّارُ من الأصنام وغيرها لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا- أي: لكن- مِنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ، وهو أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى وَعُزَيْرٌ فَإِنَّ لَهُمْ شَفَاعَةً عِنْدَ اللهِ وَمَنْزِلَةً، وهؤلاء لا يمكن أن يشفعوا للمشركين(١).

فالمراد بالموصول على هذا الأصنام وغيرها من كل ما عبد من دون الله- تعالى- فالاستثناء متصل؛ لأن المستثنى منه عام ثم استثنى منه الموحدون كعيسى(عليه السلام).

---

(١) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٠/٨٤: ٨٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/٨٦، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٧/٦٤٨، ولباب التأويل للخازن ٤/١١٤.

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح كون الاستثناء متصلًا؛ لأنه الأصل، وهو رأي الجمهور، ورجحه كثير من العلماء [1]، ولأنه لا يوجد في السياق القرآني ما يدل علي تخصيص الذين يدعون من دون الله بعيسى وعزير والملائكة، فالله تعالي يخبر بعموم ألوهيته، وجَلال عظمته وأنه النافذ أمره في كل شيء﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰه وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰه وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ . وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ولم يخصص في الآية التي نحن بصددها بأن الذي لا يملك الشفاعة بعض من كان يعبد من دون الله، فدل ذلك على أن المراد: جميع من كان تعبد قريش وغيرهم من دون الله يوم نزلت هذه الآية، وقد كان فيهم من يعبد من دون الله الآلهة، أي: الأصنام، وكان فيهم من يعبد من دونه الملائكة وغيرها، فجميع أولئك داخلون في قوله: ولا يملك الذين يدعو قريش وسائر العرب من دون الله الشفاعة عند الله، ثم استثنى تعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ فهؤلاء يملكون الشفاعة عنده بإذنه لهم بها، كما قال تعالى:﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ فأثبت تعالى للملائكة وعيسى وعُزير ملكهم من الشفاعة ما نفاه عن الآلهة والأوثان باستثنائه الذي استثناه[2].

كما أن السياق القرآني يرجح القول الثاني، وهو قوله تعالي:﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: شهد أنه لا إله إلا الله، وهذا موافق لقوله تعالي:﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ كما أن قوله تعالي:﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدا﴾ "الضمير لأصنامهم المتقدم ذكرها في قوله:﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾[مريم: ٨١]، ردّ على عابديهم في

---

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٦٧١٣/١٠، ومعالم التنزيل للبغوي ١٧١/٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٢٣/٧.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ٢١/ ٦٥٤ وما بعدها.

دعواهم أنهم شفعاؤهم عند الله، واتخاذ العهد: هو الإيمان والعمل الصالح، أي: لكن من آمن وعمل صالحًا فإنه يشفع للعصاة على ما وعد الله تعالى"[١].

ويعضد هذا مواضع في التنزيل كقوله تعالي:﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[النجم٢٦]، و﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾[طه١٠٩].

فالراجح اتصال الاستثناء؛ لأن للْمَلَائكَة والنبيين شَفَاعَة، وكذا المؤمنون.

٢- قوله تعالى:﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ . يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان٤٢].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تتحدث سورة الدخان من أولها عن قضية البعث يوم القيامة وعما يكون في هذا اليوم من أهوال، ويرد علي الكفار في قولهم: إن هي إلا الموتة الأولى فقال: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ فيفصل بينهم جميعًا أولهم وآخرهم، ثم نعت تعالى ذلك اليوم فقال:﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ هذه الآية تهديد بملاقاة الجزاء بعد تقرير إمكان البعث وأنه سيكون، وَالْإِغْنَاءُ: النَّفْعُ والْإِفَادَةُ بالْقَلِيلِ أَوِ الْكَثِيرِ، أي: لا تتعصب قرابات، ولا تتناصر صلات فلا يعين قريب قريبه، ولا يغنى والد عن ولده ولا ولد عن والده، ولا يدفع حليف عن حليفه عقوبة الله التي حلَّت به، وَتَنْكِيرُ مَوْلًى فِي سِيَاقِ النَّفْيِ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ،﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا ينصر بعضهم بعضًا [٢]، ثم استثنى فقال:﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: إلا من يتجلَّى عليه الله بالرحمة والعفو وقبول الشفاعة فيه من المؤْمنين.

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٧/ ١١٣ وما بعدها.

(٢) ينظر: جامع البيان للطبري ٢٢/ ٤٢.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف في الاستثناء الواقع في قوله تعالى:﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ بين الاتصال والانقطاع، وَهُوَ عند الكسائي والفرَّاء نَصْب على الاستثناء المنقطع، والمعنى: يوم لا يغني مولًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا يُنْصَرُه لَكِنْ مَنْ رَحِمَ اللهُ لَا يَنَالُهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى مَنْ يُغْنِيهِمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، فلا يحتاجون إلى قريب ينفعهم، أو ناصر ينصرهم، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا، أَيْ: لَا يُغْنِي قَرِيبٌ عَنْ قَرِيبٍ ولا ينصره إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُ يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي شَفَاعَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فَيَشْفَعُونَ في بعضهم، كما روى عن ابن عباس(1).

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح كون الاستثناء متصلًا؛ وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء كسهل والْحسن(2)، وابن عباس؛ حيث قال:﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ يعني من الْمُؤمنِينَ فإنهم تشفع لهم الأنبياء والملائكة ويشفع بَعضهم لبَعض(3)، واتصال الاستثناء هنا رجحه -أيضًا- كثير من المفسرين(4)، يقول الألوسي عن الاستثناء في الآية:" والاستثناء من أي كان متصل، وقال الكسائي: إنه منقطع... ولا وجه له مع ظهور الاتصال (5).

---

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/٤٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤٨/١٦، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٩/ ٤٠٧، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٧/ ٣٣٠.

(2) ينظر: إعراب القرآن للعكبري ١١٤٧/٢، وفتح الرحمن في تفسير القرآن للعليمي ٢٥٥/٦.

(3) ينظر: تنوير المقباس لابن عباس صـ٤١٨، والوسيط للواحدي ٩١/٤، ومفاتيح الغيب ٦٦٣/٢٧.

(4) ينظر: جامع البيان للطبري ٢٢/ ٤٢، وإعراب القرآن للنَّحَّاس ٤/ ٨٨، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٦٧٥٠/١٠.

(5) روح المعاني للألوسي ١٣/ ١٣٠.

فاتصال الاستثناء علي أن يكون قوله:﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يشفع إلّا من رحم الله، قول حسن؛ لأنه قد صحّ عن النبيّ(ﷺ) أنه يشفع لأمته حتّى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من الإيمان، وصح عنه(ﷺ) أن المؤمنين يشفعون؛ حيث قال:[وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا، فِي إِخْوَانِهِمْ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا، فَيَقُولُ اللهُ: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ... فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا... فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا... فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلاَئِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ][1] وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّهُ يُقَالُ لرَسُول الله(ﷺ):[سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ][2].

وهذا أيضًا يؤيده السياق القرآني كَمَا قَالَ تَعَالَى:﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ:٢٣] وَقَالَ:﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الْأَنْبِيَاء:٢٨]، ومثله:﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾[طه١٠٩]، ومِنَ الشُّفَعَاءِ الْمَلَائِكَةُ وَقَدْ حَكَى اللهُ عَنْهُمْ قَوْلَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ:﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ ﴾ [فصلت:٣١].﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾[النجم٢٦]، وفي الآيات السابقة وفي مثل قوله تعالي:﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ وقوله:﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ حيث زعموا أن آلهتهم التي عبدوها من دون الله تشفع لهم فكذّبهم الله في قولهم ذلك فقال:﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه ٩/١٢٩-ح/٧٤٣٩(كِتَابُ التَّوْحِيدِ بَابُ: قَوْلِه وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه ٦/ ٨٤ -ح/ ٤٧١٢(كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا).

يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [يونس: ١٨] مما يدل علي أن المؤمنين يشفع لهم- سواء من الأنبياء أو الملائكة أو بعضهم لبعض- والكفار بخلاف ذلك، وهذا يدل علي اتصال الاستثناء.

والسياق اللغوي يدل علي اتصال الاستثناء، فالغرض من الآية تيئيس الكفار، وتبشير المؤمنين، وجملة﴿إِنَّهُۥ﴾ مستأنفة، مسوقة لتعليل ما قبلها، ومعني﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٤٢﴾ أي: الغالب المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، فأعداؤه هم الكافرون الفاجرون وأولياؤه هم المؤمنون المتقون [1].

٣- قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تحكي سورة النجم من أولها عن تكذيب المشركين للنبي(ﷺ) ونددت بعقائدهم الجاهلية في معبوداتهم التي يعبدونها من دون الله كاللَّات والعُزَّى وَمَنَاة، وكذبهم أن الملائكة بنات الله وتبجحهم بأنهم على الحقّ، وهم في الحقيقة﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ثم قرر تعالى-علي سبيل التوكيد- أنه سيحاسب الناس كل بحسب عمله فقال:﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ من الشرك في الدنيا كما يدل عليه السياق﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ بجهنم ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بالتوحيد في الدنيا﴿بِٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وهي الجنة، ثم وصف الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى، فقال:﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ثم استثنى﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله تعالي:﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ مستثني من﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وفيه وجهان، **أحدهما**: أنه

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٤٢/٢٢، وتفسير حدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري ٣٨٩/٢٦.

استثناءٌ منقطعٌ، وإلا بمعنى لكن، ولم يجعل اللمم من الكبائر والفواحش؛ لِأَنَّ اللَّمَمَ مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فلم تندرج فيما قبلها، قاله جماعة منهم ابن مسعود ومسروق والشعبي وأبوسعيد الخدري وحذيفة بن اليمان، وَرِوَايَةُ طَاوُسٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وهو المشهور، ثم اختلفوا في معناه، فقال بعضهم: هو ما سلف من الإثم والفواحش في الجاهلية قبل الإسلام، فإن الله قد عفا لهم عنه، فلا يؤاخذهم به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنما كانوا بالأمس يعملون معنا، فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم، وقيل: هو صغار الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك، وهو من ألمّ بالشيء إذا لم يتعمق فيه ولم يلزمه، ويستدلون علي ذلك بما روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ باللمَم مِمَّا قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ(ﷺ) قال:[إن الله تَعَالَى كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمنّى وتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصدِّق ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبه][1]. وفي رواية[وزنا الأذن الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمنى وتشتهي][2].

وذكر مقاتل بن سليمان أن هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار كان له حانوت يبيع فيه تمرًا، فجاءته امرأة تشتري منه تمرًا، فراودها عن نفسها، فأبت وانصرفت، فندم نبهان وأتى رسول الله(ﷺ) فقال: يا رسول الله ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع، فقال: لَعَلَّ زَوْجَهَا غَازٍ، فنزلت هذه الآية.

الثاني: أنه متصل، وهذا عند مَنْ يُفَسِّر اللممَ بأنه من الكبائر والفواحش لا من الصغائرِ، ومعنى الآية: إلا إن يلم بالفاحشة مرة ثم يتوب أو يقع الوقعة ثم ينتهي، وهو قول أبي هريرة ومجاهد والحسن وأبي صالح، ورواه عطاء عن ابن عباس،

---

(١) أخرجه البخاري في جامعه الصحيح ٨/٥٤-ح/٦٢٤٣(كِتَابُ: الِاسْتِئْذَانِ، بَابُ: زِنَا الجَوَارِحِ).
(٢) أخرج أحمد في مسنده ٨/٣٤٣-ح/٨٥٢٠ (مسند: أبي هريرة).

ويستدلون علي ذلك بما روي عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ قَالَ:﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ الَّذِي يُلِمُّ بِالذَّنْبِ ثُمَّ يَدَعه، وعَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ قَالَ: هُوَ الرَّجُلُ يُلِمُّ بِالْفَاحِشَةِ ثُمَّ يَتُوبُ، وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ(ﷺ):[الرجز]

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

وعَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ:﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ يُلِمُّ بِهَا فِي الْحِينِ، قُلْتُ: الزِّنَا؟ قَالَ: الزِّنَا ثُمَّ يَتُوبُ، وعَنِ الْحَسَنِ فِي الآية قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) يَقُولُونَ: هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ اللَّمَّةَ مِنَ الزِّنَا، وَاللَّمَّةَ مِنْ شُرْبِ الْخَمْرِ، فَيَجْتَنِبُهَا وَيَتُوبُ مِنْهَا، وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَالَ ذكوان: سُئِلْتُ عَنْ﴿ٱللَّمَمَۚ﴾ فَقُلْتُ: هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ الذَّنْبَ ثُمَّ يَتُوبُ، وَأَخْبَرْتُ بِذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ: لَقَدْ أَعَانَكَ عَلَيْهَا مَلَكٌ كَرِيمٌ، وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو بن العاص قَالَ:﴿ٱللَّمَمَۚ﴾: مَا دُونَ الشِّرْكِ [1].

ومعنى اللمم على هذا القول: ما تيب منه مما أصابه وإن عظم وكبر.

الرأي الراجح: والذي أميل إليه- مع جواز اتصال الاستثناء وانقطاعه- ترجيح كون الاستثناء متصلًا؛ لأنه الأصل، كما أن السياق يؤيده من عدة وجوه:

أولًا: السياق غير اللغوي(الخارجي): روى عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: إلا اللمم، قال: هُوَ الرَّجُلُ يُلِمُّ بِذَنْبٍ ثُمَّ يَتُوبُ. قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعِ النَّبِيَّ(ﷺ) كَانَ يَقُولُ:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

قَالَ النَّحَّاسُ: هَذَا أَصَحُّ مَا قِيلَ فِيهِ وَأَجَلُّهَا إِسْنَادًا [2]، وَدَلِيلُ هَذَا التَّأْوِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٥٣٢/٢٢ وما بعدها، والكشف والبيان للثعلبي ١٤٨/٩ وما بعدها، ومعالم التنزيل للبغوي ٤/ ٣١١، ولسان العرب لابن منظور ١٢/ ٥٤٩(ل م م) والدر المصون للسمين الحلبي ١٠/ ١٠٠ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٢٦/٧ وما بعدها.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ١٠٧.

الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ:﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَة مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فَضَمِنَ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ مع مباشرتهم واقترافهم بالفعل للفاحشة وظلم النفس، وقال:﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزُّمَر ٥٣] فَضَمِنَ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ مع إسرافهم كَمَا قَالَ عقيب اللمم:﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ فَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يكون﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ استثناء متصلًا.

ثانيًا: بالنظر إلي ما في كتب اللغة عن أصل ومعنى لفظة(اللمم) فقد جاء ما يؤيد القولين، فمما يؤيد انقطاع الاستثناء أن الْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ الْإِلْمَامَ فِي مَعْنَى الدنوّ والقرب، وقَالَ الْمُبَرِّدُ: أَصْلُ اللَّمَمِ: أَنْ تُلِمَّ بِالشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرْكَبَهُ، يُقَالُ: أَلَمَّ بِكَذَا إِذَا قَارَبَهُ وَلَمْ يُخَالِطْهُ، وَقَالَ: وقوله:﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ يَقُولُ: إلّا المتقاربَ من صغير الذنُوب، وعَن ابْن الْأَعرَابِي: اللَّمَم من الذُّنوب: مَا دون الْفَاحِشَة، وذكر الكلَبيّ: أنّ النظرَةُ عنْ غير تعمُّدٍ لَممٌ وهي مغفورةٌ، فإن أعادَ النظَرَ فليس بلَمَمٍ هُوَ ذَنبٌ [(١)].

ومما يؤيد اتصال الاستثناء ما قاله الزجاج عن أَصْلُ اللَّمَمِ فقال:" وَالْإِلْمَامِ في اللغة يوجب أنك تأتي الشيء الوقت ولا تقيم عليه"[(٢)]، وقال نفطويه: اللمم هو أن تأتي ذنبًا لم يكن لك بعادة، والعرب تقول: ما تَأْتِينَا إلاَّ لِماماً: أي في الحين بعد الحين. وقيل: أصلُ اللَّمَم فِي اللُّغَةِ: ما قَلَّ وصَغُر، ومنه: أَلَمَّ بِالْمَكَانِ قَلَّ لُبْثُهُ فِيهِ، وَأَلَمَّ بِالطَّعَامِ قَلَّ أَكْلُهُ مِنْهُ [(٣)].

---

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٠٠، وتهذيب اللغة الأزهري ١٥/ ٢٥٠(ل م م) والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢١/ ٥٥ وما بعدها، وفتح القدير للشوكاني ٥/ ١٣٥ وما بعدها.

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٧٤.

(٣) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٥/ ٢٥٠(ل م)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ١٠٧، والدر المصون للسمين ١٠/ ١٠٠.

وعلي هذا فمعني الاتصال وارد في اللغة ولو علي وجه، بل مما يؤيد اتصال الاستثناء هنا ما قاله نفطويه:" ولا يكون اللمم أن تهم ولا تفعل؛ لأن العرب إذا قالت: ألم بنا فلان معناه فعل الإتيان لا أنه همَّ ولم يفعل، وقَالَ أَبُو عُبيد، مَعْنَاهُ: الأحيانَ على غير مُواظبة وَلَا وقتٍ مَعْلوم، ويدل على أنه فعل الذنب قوله:﴿وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ فهل تكون المغفرة إلا لمن فعل ذنبًا؟ وهل يُغفر ما لم يُفعل؟[1].

فالْإِلْمَام يقتضي- لغَة- أَنَّك تَأتي على الشَّيْء فِي الْوَقْت وَلَا تُقيم، واللمم علي هذا هو أن تحدث بينك وبين الشيطان ونفسك معركة(بين الحق والباطل) وفي أثناء المقاومة يختلسانك على غير مُواظبة وَلَا وقتٍ مَعْلوم، ولذا يقولون:" ومن غريب أمر اللام والميم إذا وقعتا فاء وعينًا للكلمة دلّتا على معنى اللّمح السريع والمرور العاجل اللطيف، فمن ذلك: ألم اللص على الشيء: ذهب به... ولمح البرق والنجم: لمع من بعيد، وبرق لمّاح ولمحته ببصري ورأيته لمحة البرق وهو أسرع من لمح البصر، واللّمس معروف وفيه معنى المخالسة، ومن المجاز: لامس المرأة ولمسها: جامعها، ولا يخفى ما توحي به هذه من مخالسة وانتهاز ونأي عن الأنظار"[2].

ثالثًا: السياق اللغوي(الداخلي) يؤيد اتصال الاستثناء ويأتي علي وجوه، أحدها: حرف التعريف في الموصوف(اللمم) للجنس، فهو في حكم النكرة، والمعنى يجتنبون الكبائر كلها مطلقًا إلا القليل منها، بمعنى: أنه يلم بها مرة أو مرتين، ثم يتوب عن قريب ولا يجعلها عادة، وهو قول كثير من السلف[3]. ثانيهما: قوله تعالي:﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ يؤيد اتصال الاستثناء؛ لأن الجملة تَعْلِيلٌ لِمَا تَضَمَّنَهُ الِاسْتِثْنَاءُ، فسعة المغفرة تقتضي مغفرة أي شيء وأي فعل- سوي الشرك لدلالة النص علي ذلك- كما

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي ١١/ ٧١٦٦.

(٢) إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش ٩/ ٣٦٠.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن للإيجي ٤/ ٢١٥.

أنه تَعَالَى لَمَّا أَخْرَجَ الْمُسِيءَ عَنِ الْمَغْفِرَةِ بَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ لِضِيقٍ فِيهَا، بَلْ ذَلِكَ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى، وَلَوْ أَرَادَ اللهُ مَغْفِرَةَ كُلِّ مَنْ أَحْسَنَ وَأَسَاءَ لَفَعَلَ، وَمَا كَانَ يَضِيقُ عَنْهُمْ مَغْفِرَتُهُ، وَالْمَغْفِرَةُ مِنَ السَّتْرِ، وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى قَبِيحٍ، وَكُلُّ مَنْ خَلَقَهُ اللهُ إِذَا نَظَرْتَ فِي فِعْلِهِ، وَنِسْبَتِهِ إِلَى نِعَمِ اللهِ تَجِدُهُ مُقَصِّرًا مُسِيئًا[(١)].

وَمما يدل علي ذلك ما قَالَه عَمْرُو بْنُ شُرَحْبِيلَ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنِّي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا قِبَابٌ مَضْرُوبَةٌ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذِهِ؟ فَقَالُوا: لِذِي الْكَلَاعِ وَحَوْشَبٍ، وَكَانَا مِمَّنْ قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُمَا لَقِيَا اللهَ فَوَجَدَاهُ وَاسِعَ الْمَغْفِرَةِ[(٢)].

ثالثًا: قوله تعالي:﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ لِتَقْرِيرِ مَا قَبْلَهَا، فَعَلَّلَ الله تعالي سعة مَغْفِرَته للَّمَمِ بِعِلْمِه بِحَالِ الْإِنْسَانِ وأطواره وخُرُوجِهِ مِنْ مَوَادِّ الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ تَكُونُ غِذَاءً فَدَمًا فَمَنِيًّا يُلَقَّحُ الْبُوَيْضَاتِ فِي رَحِمِ الْأُمِّ، وَعِلْمُهُ بِحَالِهِ بَعْدَ هَذَا التَّلْقِيحِ؛ إِذْ يَكُونُ جَنِينًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، فَقُصَارَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ ضَعِيفٌ كَمَا قَالَ تعالي:﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾[الروم:٥٤]، وقَالِ:﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[النساء٢٨]، فهذا الاستثناء إنما هو من باب الرحمة بالإنسان، والتخفيف عن ضعفه البشريّ في حال يغلبه فيه ضعفه- وليس في مطلق الأحوال- وحتى لا ييأسَ صاحبُ الكبيرةِ من رحمتِه تعالى، فيندّ منه الذنب، أو تفلت منه الهفوة، ثم سرعان ما يدركه إيمانه ويهتف به وازع الخشية من ربّه، فيرجع إلى ربّه من قريب، فيجد ربّا غفورًا رحيمًا [(٣)].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٩/ ٢٧١.

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٨/ ٦٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ١٠٩.

(٣) ينظر: تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا ٥/٤٠، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٤/٦١١.

وهذا التأويلُ أولى؛ رأفة ورفقًا بالناس؛ إذ الغالب في الإنسان مواقعة المعاصي، وعلى هذا أنشدوا قول النبي(ﷺ) السابق وقد تَمَثَّلَ به، فالله تعالي واسع المغفرة وهو أعلم بحال عباده.

٤- قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢ ...﴾.[المعارج].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تتحدث سورة المعارج من أولها عن يوم القيامة وعن بعض أهواله، وما يقع فيه للمخلوقات من اضطراب وتناكر، وحرص كل فرد على النجاة بنفسه، ناسيًا كل الروابط التي كانت تربطه بغيره حتى أقربائه وأصدقائه﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَاب وَاقِع . لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِع... وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيم. يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ . وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾، ثم تحدثت عن خصلة خلقية ذميمة لاصقة بالإنسان مجبول عليها في حالة فراغ الإيمان منه، فقال:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ثم فسر الهلع بقوله:﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوع. وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ ثم بين عن طريق استثناء بعض الصفات- وهى عشرة- كيفية العلاج من خلال ترويض نفس الإنسان بالتربية الدينية التي تهذبه، وتَقْتَلِعُ تلك الخصلة القبيحة الَّتِي تَكَادُ تَكُونُ فِطْرِيَّة، فقال:﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقّ مَّعْلُوم ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ٢٦...﴾.[المعارج].

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قبل البدء في ذلك نعرّف بالمستثنى منه؛ حتي يتسنى لنا معرفة الاستثناء، وهو قوله:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ قيل: المراد بالإنْسَان: الكافر، قاله الضحاك والكلبي[1]، وقيل:

---

(١) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس صـ ٤٨٥، وجامع البيان للطبري ٢٣/ ٦١٠ والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١٢/ ٧٧١٢، والنكت والعيون للماوردي ٦/ ٩٤.

نزلت فِي أبي جهل، وقيل: في أُميَّة بن خلف [١]، وقيل: الْمُرَاد بِالْإِنْسَانِ: جِنْسه لَا فَرْدٌ مُعَيَّنٌ ليصح استثناء المصلين وما بعده، كما أن لهذا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ٧﴾[العلق] وَقَوْلِهِ:﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[الْأَنْبِيَاء: ٣٧][٢].

وبعد معرفة ما سبق فقوله تعالى:﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ . وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقّ مَّعْلُوم...﴾ هو استثناء من قوله:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوع. وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ وقد اختلف في الاستثناء هنا بين الاتصال والانقطاع، فمن قال: إن اللام في الإنسان للجنس فالاستثناء متصل، والمعنى: أن جنس الإنسان أو كل فرد منه خلق مقدرًا منه الهلع إلا المؤمنين الكاملين الموصوفين بالصفات المذكورة الدالة على الاستغراق في طاعة الله، ومن قال: إن اللام في الإنسان للعهد فالاستثناء منقطع، والمعنى: أن الإنسان الكافر خلق هلوعًا لكن المؤمن الموصوف بتلك الصفات﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰت مُّكْرَمُونَ ﴾[٣].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح كون الاستثناء متصلًا، وأن المراد بالإنسان هنا: الجنس لا فرد معين، وإن كان الكافر يدخل فيه دخولًا أوليًّا؛ لأن الأمر

---

(١) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٣٣٨، والدر المنثور السيوطي ٨/ ٢٨٣.

(٢) ينظر: معانى القرآن للأخفش ٢/ ٥٤٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢٢، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٢/ ٢٢٦، والكشاف للزمخشري ٤/ ٦١٢، والدر المصون للسمين الحلبي ١٠/ ٤٦٠، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/ ١٦٦.

(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري ٢/ ١٢٤٠، والتفسير المظهري ١٠/ ٦٥.

أوكد وأكثر فيه؛ لأن العبرة بعموم اللفظ، وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء[1]، وعد بعضهم انقطاع الاستثناء من قبيل الغريب[2].

والذي يدل علي ترجيح اتصال الاستثناء أن الْإِنْسَان بصفة عامة كجنس- لا الكافر فقط- قد خلق علي هذه الحال التي جاءت في الآية من الهلع والجزع والمنع، فهو كغيره من الأوصاف التي اتصف بها الْإِنْسَان كما قال تعالى في آية أخرى:﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَل...﴾ وقال:﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولا ﴾[الإسراء١١] عجولًا، أي: ضعيفًا، وضعفه هو أن يضيق صدره عند إصابة أدنى شيء حتى يحمله ضيق صدره على أن يدعو على نفسه بالهلاك حتى لا يصبر على حالة واحدة وإن كانت الحالة حالة نعمة ورخاء فيمل عنها ويسأم ويريد التحول إلى حالة هي دون تلك الحالة ويرضى بشيء دون، لكنه وإن خلقه على ما أخبر جعل في وسعه رياضة نفسه حتى يتحول عن الحالة التي خلقه إلى حالة أخرى، وهي حالة الصبر والحلم، وهو ما أخبر﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوع. وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ...﴾، وكذلك ما أخبر:﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ ثم قال:﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾، أخبر أن الْإِنْسَان بالرياضة والعادة يصير سخيًّا جوادًا، فعلى ذلك ما ذكر من العجلة والهلع والجزع فيه يحتمل بالرياضة [3]، والدليل علي ما سبق أنه في الآية التي نحن بصددها استثنى المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم وحملوها على المكاره وطلقوها من الشهوات حتى لم يكونوا جازعين ولا مانعين، وهذا الاستثناء هو ما تضمنه قوله تعالى:﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ...﴾ إلخ، وقد وصفهم سبحانه بما ينبئ عن

---

(١) ينظر: دَرْجُ الدُّرر لعبد القاهر الجرجاني ٦٦٢/٢، وإعراب القرآن لزكريا الأنصاري صـ٥٣٠، وإعراب القرآن لمحيي الدين درويش ٢١٣/١٠، وتفسير حدائق الروح والريحان للهرري ٢٢٩/٣٠.

(٢) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني ١٢٥٣/٢.

(٣) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٢٠٦/١٠.

كمال تنزههم عن الهلع من المداومة والاستغراق في طاعة الله ولذا كان عمله(ﷺ) ديمة، ولعل الهدف من العمل الديمة وإن قل هو الخروج عن تلك الحالة، ولذا فإن الهلع في الإنسان أمر جبلي لا يمكن زواله ولكنه يتعطل بعناية الله تعالى بأن يوفقه لتلك الأعمال المستثناة [١].

ومما يدل أيضًا علي ترجيح اتصال الاستثناء أن تلك الأوصاف المستثناة لا تتوفر في أي مسلم، فهي لا تصدر من جميع المسلمين؛ لأنها تتطلب الإدامة علي فعلها، ولذا ذهب البعض إلى أن المراد من المستثنى منه بعض أفراده لا جميعهم وهو قوله:﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ . ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ...﴾ قيل: هم الصحابة خاصّة الذين كانوا مع رسول الله(ﷺ) وهو قول ابن زيد، وهذا القول وإن كان تخصيص بلا مخصص لكنه يدل علي أن المراد بالْإِنْسَانِ جِنْسه لَا فَرْدٌ مُعَيَّنٌ ليصح استثناء المصلين وما بعده منه مما يدل علي اتصال الاستثناء [٢].

والدليل كذلك علي اتصال الاستثناء أن بعض تلك الأوصاف(المستثنى منه) قد يفعلها غير المسلمين وَلَكِنَّهُمْ لَا يُرَاعُونَهَا حَقَّ مُرَاعَاتِهَا بِاطِّرَادٍ، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلا ﴾، وقال:﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ أَيْ: لَثَقِيلَةٌ شَدِيدَةٌ الْوَقْعِ إِلَّا عَلَى الْمُخْبِتِينَ الْمُتَطَامِنَةِ قُلُوبُهُمْ وَجَوَارِحُهُمْ لله، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَسْتَفِيدُونَ بِالصَّلَاةِ، لِمَا تُعْطِيهِ الصَّلَاةُ مِنْ أَثَرِ مُرَاقَبَةِ اللهِ، وَمِنْ النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وليست الصلاة التي عناها القرآن هي مجرد القيام والركوع والسجود، ثم نشاهد من معتاديها الإصرار على الفواحش والمنكرات، إذ لا أثر لها مما وصفه الله بقوله:﴿إِنَّ

---

(١) ينظر: روح البيان لإسماعيل حقي ١٠/١٦٤، وروح المعاني للألوسي ١٥/٧٠.

(٢) ينظر:جامع البيان للطبري ٢٣/ ٦١٢، الكشف والبيان للثعلبي ١٠/ ٣٩، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١٢/ ٧٧١٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨/ ٢٩١.

ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ فَمَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ تَطَهَّرَتْ نَفْسُهُ مِنَ الْهَلَعِ وَالْجَزَعِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ، وَمِنَ الْبُخْلِ وَالْمَنْعِ إِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ، وما يحدث في الصلاة يحدث في غيرها من الصفات المستثناة، فالمشرك قد ينفق كما قال تعالى:﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾. فلا ينفق إلا عن كراهة، كما قَدْ يَتَّصِفُ بِحِفْظِ الْأَمَانَاتِ وَالْعَهْدِ، ولكن اتِّقَاءَ مَذَمَّةِ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ، وَمَعَ أَحْلَافِهِ دُونَ أَعْدَائِهِ، وقد يَشْهَدُ بِالصِّدْقِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ هَوًى فِي الْكَذِبِ، وَإِذَا خَشِيَ أَنْ يُوصَمَ به [1].

ومما يدل كذلك علي اتصال الاستثناء مراحل خلق الإنسان فكلها تدل علي هلعه وضعفه في الخلقة من هذا الطين الأسود اللازب الذي جف حتى صار على هذه الخلقة، وقد جاء هذا في كثير من آيات القرآن الكريم.

٥- قوله تعالي:﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَد ا ٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَد وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تأتي سورة الجن لتسلية الرسول(ﷺ) عما صدر من قومه من عداوة، فإذا كان من قومك من رفض الإيمان فإن هناك جنسًا آخر آمنوا وسمعوا كلامًا عجبًا، ولذا- بعد قصة النبي مع الجن- رجع السياق القرآني بالرد على هؤلاء الذين تجمعوا وتلبدوا علي عداوته﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدا ١٩﴾ قل لهؤلاء الكفار﴿إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَد ا ٢٠﴾ هذه هي دعوتي، وقل لهم﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدا ٢١﴾ وإنما ذلك إلى الله وحده، وأكد ذلك بإعلان عجزه عن شؤون نفسه بعد عجزه عن شؤون غيره﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَد وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ وملجأً إن

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٩/ ١٧١.

أرادنى بسوء، ثم قال﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ فهذا هو الذي أملكه أو هذا هو الذي يجيرني من الله، وأما سوي ذلك فلا.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف العلماء في مستثني قوله:﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ فقيل: إنه استثناء متصل من مفعول(أملك) أي من مجموع الأمرين وهما ضرًّا ورشدًا من قوله:﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ فإن التبليغ إرشاد ونفع، أي: لا أملك لكم إضلالًا ولا إرشادًا إِلَّا أَنْ أُبَلِّغَكُمْ مِنَ اللهِ مَا أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِكُمْ إِيَّاهُ، فَأَمَّا الإرشاد والإضلال فَلَا أَمْلِكُهُمَا فإنَّهما بيده الله، وَيكون قَوْلُهُ:﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ لِتَأْكِيدِ نَفْيِ الِاسْتِطَاعَةِ عَنْهُ وَبَيَانِ عَجْزِهِ عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى إِنْ أَرَادَ بِهِ سُوءًا لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُجِيرَهُ مِنْهُ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ والْفَرَّاءِ وابن السائب والكلبي. وقيل: أَنَّهُ استثناء من قوله:﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَد وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾ أي: لَا يُجِيرُنِي مِنْهُ وَيُخَلِّصُنِي وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلْجَأً لكن إن بلغت عن الله الرِّسَالَةَ الَّتِي أَوْجَبَ أَدَاءَهَا عَلَيَّ رحمني بِذَلِكَ، كَمَا قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾، وهَذَا الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا لَمْ يَقُلْ وَلَنْ أَجِدَ مُلْتَحَدًا بَلْ قَالَ:﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، وَالْبَلَاغُ مِنَ اللهِ لَا يَكُونُ دَاخِلًا تَحْتَ قَوْلِهِ:﴿مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾؛ لِأَنَّ الْبَلَاغَ مِنَ اللهِ لَا يَكُونُ مِنْ دُونِ اللهِ، بَلْ يَكُونُ مِنَ اللهِ وَبِإِعَانَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، قاله مقاتل والحسن البصري والزَّجَّاجِ [(١)].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح كون الاستثناء متصلًا؛ لأنه الأصل، والمناسب للسياق فقَوْلُهُ تَعَالَى:﴿إِلَّا بَلَٰغٗا﴾ عوده علي الضر والرشد أولي، فإن التبليغ

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ٢٦١/١٠، والتفسير البسيط للواحدي ٣٢٧/٢٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٥٠/٤، ومفاتيح الغيب للرازي ٦٧٥/٣٠ ، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٠٢/١٠، وإعراب القرآن لمحيي الدين درويش ٢٤٧/١٠.

إرشاد ونفع، فهما من جنسه، وكذا سياق الآية اللغوي البعدي وهو قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فعصيان الرسول يترتب عليه أنه لا يملك لهم ضرًا ولا رشدًا وإنما هو البلاغ فقط، ولا يليق بالسياق أن يعود البلاغ علي قوله:﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٢﴾ ثم يذكر عصيانهم للرسول، فاتصال الاستثناء يخدم محور السياق، فالمحور يقص علينا قصة إصرار الكافرين على الكفر وكيف أنهم تضافروا على إبطال الدعوة ومعاداة الرسول(ﷺ)، فأمام هذا الموقف يأمر الله رسوله(ﷺ) أن يقول لهؤلاء: لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَداً فإذا اخترتم لأنفسكم الكفر فأنتم تتحملون مسئولية ذلك﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾.

أما ما ذكره أبو حيان من أن استثناء قوله:﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ من قوله:﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّا وَلَا رَشَدا ٢١﴾ فِيهِ بُعْدٌ لِطُولِ الْفَصْلِ بين المستثنى والمستثنى منه، والأولى رجوعه إلي قوله:﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَد وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٢﴾ فقد رد عليه السمين الحلبي فقال:" وأين الطولُ وقد وقع الفَصْلُ بأكثرَ مِنْ هذا"(١). فلا يضر طول الفصل بينهما.

ومما يدل علي اتصال الاستثناء ورجوعه إلي قوله:﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ لا إلي قوله:﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَد وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٢﴾ أنه(ﷺ) لا يجوز أن تقع له الحاجة إلى الإجارة من عذاب الله، ولم يوجد منه تقصير يستوجب به العقاب؛ فلا بد من أن يحدث شيء من التقصير في التبليغ حتى يستقيم ذكر الإجارة فيه.

واستدل كثير من العلماء علي اتصال الاستثناء بالسياق غير اللغوي وهو قراءة أبي وابن مسعود حيث قرأ:(قل إني لا أملك لكم غيًّا ولا رشدًا إلا بلاغًا من اللَّه)(٢).

---

(١) الدر المصون للسمين الحلبي ٥٠١/١٠، وينظر: روح البيان لإسماعيل حقي ١٩٩/١٠.

(٢) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ١٠/ ٢٦٢، والكشاف للزمخشري ٤/ ٦٣١.

٦- قوله تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ٤٢...﴾.[المدثر].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تتحدث سورة المدثر من أولها عن الإنذار وتقرير عقيدة البعث والجزاء، فبدأت بأمر رسول الله(ﷺ) بالإنذار، والتأكيد على حقيقة الحياة الأخروية وما سوف يلقاه الكافر- حينما يدق جرس الخطر وينقر في الناقور- من العذاب والنار في سقر، ثم بين تعالى أن:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ٣٨﴾ ثم استثنى:﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩﴾ فإنهم لا يرتهنون،"عن ابن عباس:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ يقول: مأخوذة بعملها...أصحابَ اليمين لا يرتهنون بذنوبهم...لا يؤاخذهم الله بسيئ أعمالهم، ولكن يغفرها الله لهم"(١).

آراء المفسرون في المستثنى منه وهو قوله تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾. فيه ثلاثة أوجه: أحدها: يعني كل نفس كافرة مرتهنة بعملها﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم المسلمون فإنهم لا يرتهنون، قاله الضحاك ومقاتل(٢)، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ: يا أيها الكفار ما سلككم في سقر(٣). والثاني: كل نفس بالغةٍ مُرتَهنةٌ بعملها لتُحاسَب عليه إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ وهم أطفال المسلمين، فإنه لا حساب عليهم؛ لأنه لا ذنوب عليهم، قاله عليّ(ﷺ) واختاره الفراء(٤). والثالث: من المفسرين من يحمل هذا على العموم، وَهو الظَّاهِرُ فِي كُلِّ نَفْسٍ من نفوس الإنس والجن من ذكر أو أنثى، أي كل

---

(١) جامع البيان للطبري ٢٤/ ٣٥.

(٢) ينظر: تنوير المقباس ابن عباس صـ٤٩٢، تفسير مقاتل ٤٩٩/٤، وبحر العلوم للسمرقندي ٣/ ٥١٨. تفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمَنِين ٥/ ٦١، والنكت والعيون للماوردي ٦/ ١٤٨.

(٣) ينظر: فضائل القرآن لأبي عُبيد بن سلاّم صـ٣١٦، وروح المعاني للألوسي ١٤٧/١٥.

(٤) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي ٣٦٥/٤.

نفس مرتهنة بكسبها عند الله غير مفكوكة عنه، كافرة كانت أو مؤمنة، عاصية أو طائعة. (١).

آراء المفسرين في المستثنى: وهو قوله تعالى:﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾. اختلف في المراد بهم، فقال بعضهم: هم أطفال المسلمين، فعَنْ عَلِيٍّ(ﷺ) قَالَ: هُمْ وُلْدَانُ الْمُسْلِمِينَ (٢). وقال آخرون: هم الملائكة، وروى ذلك عن ابن عباس(٣)، وعلة من قال إن أصحاب اليمين في هذا الموضع هم الولدان وأطفال المسلمين، أو الملائكة، أن هؤلاء لم يكن لهم ذنوب، وقالوا: لم يكونوا ليسألوا المجرمين﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾ إلا إنهم لم يقترفوا في الدنيا مآثم، ولو كانوا اقترفوها وعرفوها لم يكونوا ليسألوهم عما سلكهم في سقر؛ لأن كلّ من دخل من بني آدم ممن بلغ حدّ التكليف ولزِمه فرض الأمر والنهي قد علم أن أحدًا لا يعاقب إلا على المعصية (٤).

وقيل: أصحاب اليمين هم المؤمنون، وهو قول عطاء عن ابن عباس، وَقَالَ الكلبي ومُقَاتِلٌ: هُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى يَمِينِ آدَمَ يَوْمَ الْمِيثَاقِ حِينَ قَالَ اللهُ لَهُمْ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي. وَعَنْ مقاتل أَيْضًا: هُمُ الَّذِينَ أُعْطُوا كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، وقال الضحاك: هم الذين سبقت لهم من الله الحسنى (٥).

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٧١٥/٣٠، ونظم الدرر للبقاعي٧٠/٢١، وتفسير المراغي ٢٦/٢٧، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٣٠٢/١٥.

(٢) ينظر: تفسير مجاهد صـ٦٨٥،وتفسير عبد الرزاق ٣٦٣/٣، ومعاني القرآن للزجاج ٢٤٩/٥.

(٣) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ١٠/ ٧٧.

(٤) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٠٥، وجامع البيان للطبري ٢٤/ ٣٧.

(٥) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي١٠/٧٧، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٤٥٣/٢٢، ومعالم التنزيل للبغوي ١٧٩/٥، ومفاتيح الغيب للرازي ٧١٥/٣٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨٧/١٩.

وعلي هذا يكون السؤال سؤال توبيخ وتحسير، وإلّا فهم عالمون ما الذي أدخل المجرمين النار، وروى عن ابن الزبير أنه قرأ {يَا فُلَانُ مَا سَلَكَكَ فِي سَقَرَ} ورويت عن عمر أيضًا، وَهِيَ قِرَاءَةٌ عَلَى التَّفْسِيرِ[١].

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف في الاستثناء في الآية بين الاتصال والانقطاع، فمن أجاز أن يكون المسلمون من جملة من عني بقوله﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ يعني أن النفس هنا على سبيل العموم قال في أصحاب اليمين: هم أطفال المسلمين أو الْمَلَائِكَةُ، فَعَلَى هَذَا الْقَوْل يَكُونُ اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا، أَيْ لَكِنَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ؛ وذلك لأنهم لم يكتسبوا ما يرتهنون به، ومن قال إن المرتهنة هي الكافرة، قال: أصحاب اليمين هم المؤمنون، ويكون الاستثناء متصلًا، فإن المسلمون الصالحون فكُّوا رقاب أنفسهم بأعمالهم الحسنة كما يخلِّص الراهن رهنه بإيفاءِ الحق؛ أو لأن الله يغفر لهم[٢].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح كون الاستثناء متصلًا؛ لأن ما روى أن(أصحاب اليمين) هم أطفال المسلمين أو الملائكة؛ لأنهم لم يكسبوا فيرتهنوا بكسبهم لم يصح الأثر به، وما لم يصح الأثر به لا يمكن حمل أصحاب اليمين عليه[٣]. ومن قال(أصحاب اليمين): الملائكة " تعقب بأن إطلاق النفس على الملك غير معروف وبأنهم لا يوصفون بالكسب أيضًا"[٤].

---

(١) ينظر: كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني صـ٢٠٦، والهداية لمكي بن أبي طالب القيسي ١٢/ ٧٨٤٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/ ٨٧.

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ٣٣٨/١٠، والدر المصون للسمين الحلبي ٥٥٥/١٠، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ١٩/ ٥٣٢.

(٣) ينظر: التفسير المظهري ١٠/ ١٣٢.

(٤) روح المعاني للألوسي ١٥/ ١٤٦.

والسياق القرآني يرجح كون الاستثناء متصلًا، قال الآلوسي:" الظاهر سباقًا وسياقًا أن يراد بهم طائفة من البر المكلفين"(١). وعلى هذا فالنفس المرتهنة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ هي الكافرة، والمراد بأصحاب اليمين هم المؤمنون، والاستثناء متصل، فإن سباق الآيات من أول السورة يؤكد حقيقة الحياة الأخروية وما سوف يلقاه الكافرون من العذاب وأن ذلك حقيقة وليس وهمًا، وما حوي ذلك من تهديد الكفار، قال تعالى:﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَىٰ ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا... سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٢٩﴾.

ومما يدل علي اتصال الاستثناء السياق(غير اللغوي) وهو ما روى عن ابن مسعود أنه قرأ:[يا أيها الكفار ما سلككم في سقر] (٢).

كما أن السياق(اللغوي) البعدي يؤكد ذلك من خلال جَوَابهم وأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُتَّصِفِينَ بِخَصَائِلِ الْإِسْلَامِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، ثُمَّ ارْتَقَوْا مِنْ ذَلِكَ إِلَى ما هو أعظم وَهُوَ التَّكْذِيبُ والْكُفْرُ بِيَوْمِ الْجَزَاءِ، وظلوا هكذا﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ٤٧﴾ إشارة إلى أنهم ظلوا متلبسين في حياتهم بهذه المآثم حتى أتاهم الموت، وبغتتهم الساعة، ولا شك أن هذه صفات الكفار.

وإذا ذهب القائلون بانقطاع الاستثناء إلى أن المراد ب﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ٣٩﴾ هم الولدان أو الملائكة بناء على أن سؤالهم للمجرمين في قوله تعالى:﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ٤٢﴾ لأنهم لم يقترفوا في الدنيا مآثم، ولو كانوا اقترفوها وعرفوها لم يكونوا ليسألوهم ما سلكهم في سقر، فإن الأولى من هذا أن يكون المراد ب﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٥/ ١٤٦.

(٢) ينظر:الهداية لمكي بن أبي طالب ٧٨٤٧/١٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨٧/١٩.

ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾ المؤمنون، ويكون سؤالهم للمجرمين لزيادة تبكيتهم وتوبيخهم، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم، وإمعانًا في سرور المؤمنين، فيقول لهم المؤمنون علي سبيل الاستهزاء والسخرية كما سخروا هم بالمؤمنين﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾؟ ما الذي أدخلكم جهنم، وجعلكم تذوقون سعيرها! كما قال قولِهِ تعالى:﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ "من الدر والياقوتِ﴿يَنظُرُونَ ٣٥﴾، يعني: على السررِ ينظرونَ، كان ابنُ عباسٍ يقولُ: السررُ بين الجنةِ والنارِ، فيفتحُ أهلُ الجنةِ الأبوابَ فينظرونَ على السررِ إلى أهلِ النارِ كيفَ يعذبونَ ويضحكونَ منهم، ويكون ذلك مما يقر اللهُ به أعينَهُم أن ينظروا إلى عدوِّهم كيفَ ينتقمُ اللهُ منهُ"[1]. فبينَ "أهل النارِ وأهل الجنةِ كُوى لا يشاءُ رجلٌ من أهلِ الجنةِ أن ينظرَ إلى عدوّه من أهلِ النارِ إلا فَعَلَ"[2]. لتعظم عليه النِّعمةُ، فأهل الجنة وأهل النار يرى بعضهم بعضًا، ويحادث بعضهم بعضًا، أصحاب النار.. يجئرون ويستغيون ويصرخون، وأصحاب الجنة يحمدون الله أن عافاهم من هذا البلاء، وهذا ما يشير إليه المشهد القرآني في تصوير بديع، قال تعالى:﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ وقال تعالى:﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾(الأعراف:٥٠).

٧- قوله تعالى:﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥﴾.[النبأ].

---

(١) الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي ١/ ٤٨٥.

(٢) السابق نفسه.

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: افتتح الله- تعالى- سورة النبأ بذكر يوم القيامة وتنازع الكفار في إمكان حصوله، ثم أخذ في وصف مصيرهم فقال:﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادا ٢١﴾ مهيئة ومعدة﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابا ٢٢ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابا ٢٣﴾ لا يعلمها إلا الله، ثم بين أحوالهم في جهنم فقال:﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾ ثم استثنى فقال:﴿إِلَّا حَمِيما وَغَسَّاقا ٢٥﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قبل البدء في ذلك نعرّف ببعض مفردات الآية؛ حتي يتسنى لنا معرفة الاستثناء، فقوله﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدا﴾ في البرد ثلاثة أقوال: أحدها: أَنَّهُ الْبَرْدُ الْمَعْرُوفُ كبرد الماء والهواء، عن ابن عباس قال: لا يذوقون فيها برد الشراب، ولا الشراب، وقال مقاتل: لا يذوقون فيها بردًا ينفعهم من حرها، ولا شرابًا ينفعهم من عطش، وهو أيضًا قول كثير من المفسرين. الثاني: أنه الراحة، قاله قتادة والحسن وعطاء. والمعنيان قريبان، الثالث: أنه النوم، قال الفراء: وَإِنَّمَا سُمِّيَ النَّوْمُ بَرْدًا؛ لِأَنَّهُ يُبَرِّدُ صَاحِبَهُ، فَإِنَّ الْعَطْشَانَ يَنَامُ فَيَبْرُدُ بِالنَّوْمِ، وَهُوَ قَوْلُ الْأَخْفَشِ وَالْكِسَائِيِّ وَالْفَرَّاءِ.

والشراب: الْمَاءُ الَّذِي يُزِيلُ الْعَطَشَ، فقوله:﴿وَلَا شَرَابًا﴾ أي: شيئًا من الشراب الذي يطفئ عطشهم، ويخفف من عذابهم. وقوله:﴿إِلَّا حَمِيما وَغَسَّاقا﴾ الْحَمِيمُ: الْمَاءُ الْحَارُّ الْمَغْلِيّ جِدًّا، والغسّاق فيه أقوال: أحدها: هُوَ الشَّيْءُ الْبَارِدُ الَّذِي لَا يُطَاقُ، المسمَّى بِالزَّمْهَرِيرِ الذي يحرق ببرده، قاله ابن عباس. الثاني: هو ما يسيل مِنْ جُرُوحِ حَرْقِ أجسام أهل النار من صديد ونحوه، وَهُوَ الْمُهْلُ، يقال: غسق الجرح: إذا سال منه قيح ودم، قاله قتادة والنخعي وجماعة. الثالث: أنه الْمُنْتِنُ، قاله ابن زيد، وَدَلِيلُهُ مَا رُوِيَ أَنَّهُ(ﷺ) قَالَ:[لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لَأَنْتَنَ أَهْلَ الدُّنْيَا](١).

(١)أخرجه الترمذي في جامعه الكبير ٤/٢٨٧-ح/٢٥٨٤(بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ شَرَابِ أَهْلِ النَّار).

الرابع: أنه شَرَاب أَسْوَدَ مَكْرُوه مستوحش، قال أبو جعفر: هذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنه يكون ما يسيل من جلودهم منتنًا شديد البرد[١].

إِذَا علم هَذَا فَنَقُولُ إِنْ فُسّر الْغَسَّاقَ بِالْبَارِدِ(الزمهرير) كَانَ التَّقْدِيرُ: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا(المعروف) إِلَّا غَسَّاقًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا، وعلي هذا فقد استثنى من الشراب الحميم ومن البرد الغساق إِلَّا أَنَّهُمَا جُمِعَا لِأَجْلِ موافقة رؤوس الْآيات، وعلي هذا فالاستثناء متصل؛ لأنه من الجنس.

فعلى هذه الأقوال إن كان الغساق باردًا كان هو المستثنى من قوله:(بَرْدا) وإلا فهو والحميم كلاهما مستثنى من الشراب؛ لأنهما جنس منه، وهو أيضًا استثناء متصل.

وقيل الاستثناء منقطع من عدة أوجه: إِنْ فَسَّرْنَا الْغَسَّاقَ بِالصَّدِيدِ(المهل) أَوْ بِالنَّتْنِ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِثْنَاءُ بِالْحَمِيمِ وَالْغَسَّاقِ رَاجِعًا إِلَى الْبَرْدِ وَالشَّرَابِ مَعًا، وَأَنْ يَكُونَ مُخْتَصًّا بِالشَّرَابِ فَقَطْ، والاستثناء علي كليهما منقطع، أَمَّا الِاحْتِمَالُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: أن هؤلاء الطغاة لا يذوقون في جهنم شيئًا من الهواء البارد، ولا من الشراب النافع، لكنهم يذوقون فيها الماء الذي بلغ النهاية في الحرارة، وَالصَّدِيدَ الْمُنْتِنَ. وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ لِأَنَّ الْحَمِيمَ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْبَرْدِ فِي شَيْءٍ إِذْ هُوَ شَدِيدُ الْحَرِّ؛ وَلِأَنَّ الْغَسَّاقَ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الشَّرَابِ إِذْ لَيْسَ الْمُهْلُ مِنْ جِنْسِ الشَّرَابِ. وَأَمَّا الِاحْتِمَالُ الثَّانِي: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا شَرَابًا إِلَّا الْحَمِيمَ البَالِغ فِي السُّخُونَةِ أَوِ الصَّدِيدَ الْمُنْتِنَ. وإذا جعلت(البرد) بمعني(النوم) كان(إِلَّا حَمِيما) استثناء مُنْقَطِعًا ليس من الأول[٢].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٦٤/٢٤ وما بعدها، والنكت والعيون للماوردي ١٨٧/٦، والتَّفْسيرُ البَسِيْط للواحدي ١٣١/٢٣، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٤٢٧/٥.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٦/٣١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨٠/١٩، والدر المنثور للسيوطي ٣٩٦/٨، وروح البيان ٣٠٣/١٠، وعلم التفسير للمظهري ١٧٧/١٠.

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو الرأي الأول من كون الاستثناء متصلًا؛ لأنه الأصل ولا يلجأ للانقطاع إلا بدليل، كما أن استثناء الحميم من الشراب والغساق من البرد هو قول أكثر العلماء، فإلا في:﴿إِلَّا حَمِيما وَغَسَّاقا﴾ أداة حصر، وحميمًا بدل من شرابًا؛ لأن الكلام غير موجب(١)؛ ولأن تفسير البرد في الآية بالبرد المعروف الذي هو خلاف الحرارة هو الأظهر، وهو قول جمهور العلماء(٢).

وقول من قال أن البرد: هو النوم ضعيف؛ لأنهم لا يقولون ذقت البرد، ويقولون: ذقت الكرى، وبأنهم يجدون الزمهرير فكيف يصح نفي البرد عنهم(٣). يقول صاحب التحرير والتنوير:" وَالْبَرْدُ: ضِدُّ الْحَرِّ... وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ وَنَفَرٍ قَلِيلٍ تَفْسِيرُ الْبَرْدِ بِالنَّوْمِ، وَأَنْشَدُوا شَاهِدَيْنِ غَيْرَ وَاضِحَيْنِ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَحَمْلُ الْآيَةِ عَلَيْهِ تَكَلُّفٌ لَا دَاعِيَ إِلَيْهِ، وَعَطْفُ وَلا شَراباً يُنَاكِدُهُ(٤). فالبرد هو النوم مردود؛ لأن البرد ليس باسم من أسماء النوم، وإنما يحتال فيه، فيقال للنوم برد؛ لأنه يهدئ العطش، ثم إن الواجب أن يحمل تفسير كتاب الله على الظاهر والمعروف من المعاني إلا أن يقع دليل على غير ذلك، فطالما أَمْكَنَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى الْحَقِيقَةِ الْمَشْهُورَةِ فَلَا مَعْنَى لِحَمْلِهِ عَلَى الْمَجَازِ النَّادِرِ الْغَرِيبِ(٥).

وقد ذكر السيوطي خبرًا يفسر فيه معني قوله:﴿وَغَسَّاقا﴾ مما يؤكد اتصال الاستثناء حيث قال:" عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي(ﷺ) فِي قَوْله:﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيما﴾ قَالَ: قد انْتهى حره﴿وَغَسَّاقا﴾ قَالَ: لقد انْتهى برده وَإِن الرجل إِذا

---

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨٠٠١/١٢، والجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي ٣٣٧/٢، وإعراب القرآن لمحيي الدين درويش ٣٥٦/١٠ وما بعدها.
(٢) ينظر: المحرر الوجيز ٤٢٧/٥، والتسهيل لعلوم التنزيل ٤٤٦/٢، والبحر المحيط ٣٨٧/١٠.
(٣) ينظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٤٣٣/٦.
(٤) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٣٠/ ٣٧.
(٥) ينظر: إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٨٣، ومفاتيح الغيب للرازي ٣١/ ١٦.

أدنى الإناء من فِيهِ سقط فَرْوَة وَجهه حَتَّى يبْقى عظاماً تقَعْقع"[١]. وهذا التفسير هو- أيضًا- قول ابن عباس كما سبق، فلا كلام بعد كلامه(ﷺ) وأصحابه.

٨- قوله تعالى:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٦﴾.[التين].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تأتي سورة التين في إطار محاجة الكفار، حيث جاءت لتقرر حقيقة الإنسان وتذكيره بوجوده، وأن عليه أن يكد ويجتهد في العمل الصالح في دنياه ليبني بذلك دار مقامه في الآخرة، فبدئت السورة بقسم من الله بأربعة أشياء﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ٣﴾[٢]. ثم جاء جواب القسم﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ أي جنس الإنسان؛ لأن المراد بالإنسان الماهية الشاملة للمؤمن والكافر، أي في أحسن خلقة وصورة، ولكن ميله إلى حب الدنيا العاجلة قد أغراه باقتطاف ملذات منها دون أن يلتفت إلى

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٣٩٦.

(٢) اختلف أهل التأويل في قوله:{وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ} والأشهر أنهما التين الذي يأكله الناس، والزيتون الذي يعصرونه، واختلفوا كذلك في قوله{وَطُورِ سِينِينَ} والأشهر أنه جبل طور سيناء الذي كلم الله عليه موسي، {وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ} مكة، وقيل: إن القسم بهذه الأشياء الأربعة هو تأريخ هذا العالم منذ نشأته؛ فالتين: إشارة إلى القسم الذي بدأ من خروج آدم من الجنة إلى وقت الطوفان؛ وذلك لأن آدم وحواء استترا- حين بدت سوءاتهما- بورق التين. والزيتون: إشارة إلى القسم الذي بدأ من الطوفان إلى ظهور الأديان الحديثة، ببعثة موسى(عليه السلام)؛ وذلك لأن نوحًا(عليه السلام) حينما استوت سفينته على الجودي زرع شجرة الزيتون لغذائه وغذاء ماشيته منها، وطور سينين إشارة إلى القسم الذي بدأ ببعثة موسى إلى ظهور الإسلام؛ وذلك لأن موسى ناجى ربه وكلمه عليه. والبلد الأمين: إشارة إلى القسم الذي بدأ برسالة خاتم الرسل(ﷺ) إلى قيام الساعة؛ وذلك لأن مكة هي مولد الرسول(ﷺ) ومبعثه، ومصدر الإسلام وقبلة المسلمين. ينظر: النكت والعيون للماوردي ٦/ ٣٠٠ وما بعدها، الوسيط للواحدي ٤/ ٥٢٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٥/ ٢٧٧، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٦/ ١٦١٣ وما بعدها، وأوضح التفاسير لعبد اللطيف الخطيب صـ ٧٥٥.

الآخرة، أو يعمل لها، فكانت النتيجة﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ ثم استثني تعالى البعض فقال:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ٦﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف العلماء في معنى قوله تعالى:﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ﴾ علي قولين وترتب علي هذا اختلافهم في اتصال الاستثناء وانقطاعه في الآية-

القول الأول: قوله تعالي:﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: ثم رددناه إلى أرذل العمر وأسفله، أي في خلقه وصورته، وأضعف في قوته وحيلته ورأيه وعقله، فينقص عمله وأجره بذلك، فهُوَ مِثْل قَوْله:﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْم شَيْـًٔا﴾[الحج:٥] وقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾[يس:٦٨] فالسافلون: هم الضُّعَفَاءُ وَالزَّمْنَى والأطفال، والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعًا، ثم استثنى﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلى آخره، أي: لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنه يجري عليهم ثواب أعمالهم التي عملوا بها في حال صحتهم وشبابهم فيُكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملونه في حالة الشباب والصحة﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ٦﴾ أي: غير منقوص ولا مقطوع، وهذا القول ذهب إليه ابن عباس وعكرِمة والضحاك والكلبي وقتادة والنخعي[1].

واستدلوا علي ذلك بما روي عن ابن عباس قال: هم نفر رُدوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله(ﷺ) فسُئل عنهم حين سفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم[2]. واستدلوا كذلك بقوله:﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ فَالرَّدُّ

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ٥٧٤/١٠، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨٣٤٣/١٢، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٥٣/٢٤ وما بعدها، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥٠٠/٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٦٤/٤.

(٢) ينظر: معالم التنزيل للبغوي ٥/ ٢٧٨، ولباب التأويل للخازن ٤/ ٤٤٥.

يُشْعِرُ إِلَى رَدٍّ لِأَمْرٍ سَابِقٍ، وَالْأَمْرُ السَّابِقُ هُوَ خَلْقُ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَأَحْسَنُ تَقْوِيمٍ شَامِلٌ لِشَكْلِه وَمَعْنَاه، أَيْ: جِسْمِهِ وَإِنْسَانِيَّتِهِ[1].

القول الثاني: مَا ذَكَرَهُ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وابن زيد وأبو العالية:﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ أي: إِلَى النَّارِ وجهنم، وهي أسفل السافلين، والمؤمن رددناه إلى الجنة وهي أعلى العليين، وهو ما استثنى بقوله:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون ٦﴾ في الجنة، وَالْمَعْنَى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وهو التوحيد الذي هو الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْإِنْسَانَ عَلَيْهَا، ثم رد بشركه بربه إلي النَّار إِلَّا من آمن وَعمل صَالحًا فَإِنَّهُ لَا يرد إِلَى النَّار، واستدلوا علي ذلك بقول الإمام عَلِيّ (ﷺ): أَبْوَابَ جَهَنَّمَ بَعْضَهَا أَسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ فَيَبْدَأُ بِالْأَسْفَلِ فَيَمْلَأُ وَهُوَ أَسْفَلُ سَافِلِينَ.

والِاسْتِثْنَاءَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مُنْقَطِعٌ أي: بالردِّ إلى أسفل العمر، فهو تسفُّلٌ في الرُّتبِ والأوصاف بالنسبة إلى رتَب الشباب وأوصافِه، وأما على القول الثَّانِي فَالِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ من ضميرِ رددناه ظَاهِرُ الِاتِّصَالِ والتسفلُ حقيقيّ [2]. وَعَلَى الْأَوَّلِ: فَالْأَجْرُ هُوَ الثَّوَابُ، وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ الْأَجْرُ هُوَ النَّعِيمُ فِي الْجَنَّةِ.

الرأي الراجح: أميل إلي ترجيح اتصال الاستثناء؛ لأنه الأصل ما لم يدل الدليل علي انقطاع الاستثناء، وقد رد بعض العلماء على القول الأول بأنهم مضطرون إلى مخالفة الواقع، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له، فإنهم إن قالوا: إن الذي يُردُّ إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين خالفوا الواقع؛ لأن الهرَم وَالرَّدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ يُصَابُ بِهِ الْمُؤْمِنُ كَمَا يُصَابُ بِهِ الْكَافِرُ كما قال تعالى في جنس الإنسان: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ فَلَا يَكُونُ لِاسْتِثْنَاءِ الْمُؤْمِنِينَ هنا

---

(١) ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٩/ ٩.

(٢) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ١٠/٢٤٠، وتفسير القرآن للسمعاني ٦/٢٥٤، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٢/٢١٣، وفتح الرحمن لزكريا الأنصاري صـ٦١٨، والتحرير والتنوير ٣٠/٤٢٧ وما بعدها.

مَعْنى، وإن قالوا: من النوعين احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء، فمنهم من قدَّرَ ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم إذا رُدُّوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا وإن كان حقًّا إلا أن الاستثناء إنما وقع من الردِّ لا من الأجر والعمل، فاتصال الاستثناء هو الأظهر(١).

أما ما ذكره بعض العلماء في الآية كما جاء في الهامش الأول- من أن القَسم بهذه الأشياء الأربعة-التين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين- هو تأريخ هذا العالم منذ نشأته؛ وهذا يشير بالتنظير الي أن المراد بأسفل سافلين: هو العمر كتأريخ لعمر الإنسان، فقد رد عليه صاحب التحرير والتنوير مستخدمًا السياق وموضحًا أثره الدلالي، ومستنبطًا فَهْمًا في الآية جديدًا، وهو فَهْمٌ سديد وقويٌّ تدلُّ عليه النصوص، ويتناسبُ مع المُرادِ من سياق الأقسام الواردة في النبوَّات، فبين أن سُورَة التين احْتَوَت على التَّنْبِيهِ بِأَنَّ الله خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَى الْفِطْرَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ وهي الْإِسْلَامَ كَمَا قَالَ:﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾[الرّوم: ٣٠] وقَوْلُ النَّبِي(ﷺ):[مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ](٢) فقوله:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ أي علي الفطرة السليمة، وَمَا خَالف أُصُولَهُ أَوْ حاول تحْرِيفه فذلك فَسَادٌ وَضَلَالٌ، وهو قوله:﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ وَأما ابْتِدَاء السُّورَةِ بِالْقَسَمِ بِمَا يَشْمَلُ إِرَادَةَ مَهَابِطِ أَشْهَرِ الْأَدْيَانِ الْإِلَهِيَّةِ بَرَاعَةُ اسْتِهْلَالٍ لِغَرَضِ السُّورَةِ وإِيمَاءً إِلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ جَاءَ مُصَدِّقًا لَهَا وَأَنَّهَا مُشَارِكَةٌ أُصُولُهَا لِأُصُولِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، أَيْ: خَلَقَهُ

---

(١) ينظر: تأويلات أهل السنة للماتريدي ١٠/٥٧٤، والوجيز للواحدي صـ١٢١٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨/٤٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في جامعه الصحيح ٢/٩٤-ح/١٣٥٨(كِتَابُ: الجَنَائِزِ، بَابُ: إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ).

عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ، وَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ مَا خَالَفَ ذَلِكَ مِنَ النِّحَلِ وَالْمِلَلِ قَدْ حَادَ عَنْ أُصُولِ شَرَائِعِ اللهِ كُلِّهَا بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ اخْتِلَافِهَا فِي الْفُرُوعِ، وَالتَّقْوِيمُ: جَعْلُ الشَّيْءِ فِي قَوَامٍ، أَيْ: عَدْلٍ وَتَسْوِيَةٍ، وَحُسْنُ التَّقْوِيمِ أَكْمَلُهُ وَأَلْيَقُهُ بِنَوْعِ الْإِنْسَانِ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُ تَقْوِيمٌ خَاصٌّ بِالْإِنْسَانِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَيْسَ تَقْوِيمُ صُورَةِ الْإِنْسَانِ الظَّاهِرَةِ هُوَ الْمُعْتَبَرُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَلَا جَدِيرًا بِأَنْ يُقْسِمَ عَلَيْهِ؛ إِذْ لَا أَثَرَ لَهُ فِي إِصْلَاحِ النَّفْسِ، وَإِصْلَاحِ الْغَيْرِ، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هُوَ الْمُرَادِ لَذَهَبَتِ الْمُنَاسَبَةُ الَّتِي فِي الْقَسَمِ، قَالَ النَّبِي(ﷺ):[إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ][(١)] فَالْعَقْلُ أَشْرَفُ مَا خُصَّ بِهِ نَوْعُ الْإِنْسَانِ مِنْ بَيْنِ الْأَنْوَاعِ. فَلِذَلِكَ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ وَأَمَّا خَلْقُ جَسَدِ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ فَلَا ارْتِبَاطَ لَهُ بِمَقْصِدِ السُّورَةِ وَيَظْهَرُ هَذَا كَمَالَ الظُّهُورِ فِي قَوْلِهِ:﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥﴾ فَإِنَّهُ لَوْ حُمِلَ الرَّدُّ أَسْفَلَ سَافِلِينَ عَلَى مَصِيرِ الْإِنْسَانِ فِي أَرْذَلِ الْعُمُرِ إِلَى نَقَائِصِ قُوَّتِهِ كَمَا فَسَّرَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ لَكَانَ نُبُوُّهُ عَنْ غَرَضِ السُّورَةِ أَشَدَّ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ تَرَدُّدُ السَّامِعِينَ حَتَّى يُحْتَاجَ إِلَى تَأْكِيدِهِ بِالْقَسَمِ وَيَدُلَّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِأَنَّ الْإِيمَانَ أَثَرُ التَّقْوِيمِ لِعَقْلِ الْإِنْسَانِ الَّذِي يُلْهِمُهُ السَّيْرَ فِي أَعْمَالِهِ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَقْوَمِ، فَالْمُرَادُ: أَسْفَلَ سَافِلِينَ فِي الِاعْتِقَادِ بِخَالِقِهِ بِقَرِينَةِ قَوْلِه:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وَالمعنى: أَنَّ الْإِنْسَانَ أَخَذَ يُغَيِّرُ مَا فُطِرَ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْوِيمِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِإِلَهٍ وَاحِدٍ فَصَارَ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، وَهَلْ أَسْفَلُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ إِلَهِيَّةَ الْحِجَارَةِ وَالْحَيَوَانِ الْأَبْكَمِ، أَوْ مَنْ يَجْحَدُ وُجُودَ الصَّانِعِ وَهُوَ يُشَاهِدُ مَصْنُوعَاتِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَسْفَلَ سافِلِينَ ظَرْفًا، أَيْ مَكَانًا أَسْفَلَ مَا يَسْكُنُهُ السَّافِلُونَ، وَذَلِكَ هُوَ دَارُ الْعَذَابِ كَقَوْلِهِ:﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٨٦-ح/ ٢٥٦٤(كتاب: الْبِرِّ، بَابُ: تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ).

ٱلنَّارِ﴾[النِّسَاء: ١٤٥].فلَيْسَ لِانْقِطَاعِ الِاسْتِثْنَاءِ هُنَا احْتِمَالٌ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْفَاءِ التعليلية فِي:﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يَأْبَاهُ كُلَّ الْإِبَايَةِ [١].

ومما يرجح صحة القول الثاني أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغةٍ ولا عرفٍ، وإنما أسفل سافلين هو سجين، الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار. وأيضًا فإنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، والله تعالى قابل بين جزاء الكفار وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرًا غير ممنون، كما أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلوَّ الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس، فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم، وأخبر عن أمر يُعرف بالحس والمشاهدة وفي ذلك هضم لمعنى الآية، وتقصير بها عن المعنى اللائق بها [٢].

٩- قوله تعالى:﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.[العصر].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: أقسم تعالي بالْعَصْرِ- أي الدهر، وهو الزمن ليله ونهاره- لما فيه من العبر وتقلبات الليل والنهار؛ ولأنه محل أفعال العباد تتبدل فيه الأحداث والأحوال مما يدل علي وجود الخالق، وجواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ وقد اختلف في المراد هنا بالإنسان فقيل: إن(ال) فيه للعهد الحضوري، وهي ما عهد مصحوبها ذهنًا، أي: إن الإنسان المعهود في ذهنك يا محمد، وهم كما روي عن ابن عباس أنه أراد جماعة من صناديد قريش المشركين كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ومن كان في

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٠/ ٤١٩ وما بعدها، وأوضح التفاسير لمحمد عبد اللطيف الخطيب صـ ٧٥٥ وما بعدها، وتفسير حدائق الروح والريحان ٣٢/ ١٣٢.

(٢) ينظر: تفسير جزء عم، للشيخ مساعد الطيار: صـ ١٨٤ وما بعدها.

مثل حالهم، وقيل نزلت في معهود معين، فعن مقاتل: أنه أبو لهب. وفي خبر مرفوع: أنه أبو جهل؛ وذلك لأنهم كانوا يقولون: إن محمدًا لفي خسر فأقسم تعالى إن الأمر بالضد مما توهموه، وَقِيل الْإِنْسَان هُوَ الْكَافِر علي وجه العموم، ثم استثني المؤمنين فقال:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾، وفي بعض التفاسير:﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يعنى أبا بكر﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعنى عمر، و﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعنى عثمان﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يعنى عليّا(ﷺ). وقيل: الْأَلِف وَاللَّام فِي الْإِنْسَانِ لِلْجِنْسِ، أي أنه أراد جميع الناس، فكأنه يقول: إن الناس جميعًا في خسران إلا من اتصفوا بأربعة أشياء: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر [(١)].

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله الله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ مستثنى من قوله:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ وقد اختلف في اتصال الاستثناء وانقطاعه بناء علي اختلافهم في المستثنى منه، فإن كانت(ال) في(الإنسان) للجنس، وأن المراد به العموم فالاستثناء متصل، ومن قال: بأن(ال) هنا للعهد، والمراد بالإنسان الكافر فقط، يكون الاستثناء منقطعًا[(٢)].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح اتصال الاستثناء؛ لأن الأكثرون على أن اللام للجنس وأن ذلك هو الصَّحِيح [(٣)]؛ لأن(أَل) في الإنسان استغراقية شاملة لجميع الجنس بدليل الاستثناء الذي جاءَ بعدها وهو استثناء الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْإِنْسَانِ(إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) إلخ، وصحة الاستثناء من جملة أدلة العموم والاستغراق، فلا تستثنى الجماعة من الفرد؛ فكأنه يقول: إن كُلَّ إِنْسَانٍ في أحواله واختياراته وفِي الْمَتَاجِرِ

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٥٨٩/٢٤، وبحر العلوم للسمرقندي ٦١٥/٣، والكشف والبيان للثعلبي ١٠/ ٢٨٤، وتفسير القرآن للسمعاني ٦/ ٢٧٨، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٢/ ٢٧٩.

(٢) ينظر:غرائب القرآن٥٥٩/٦،وفتح القدير ٦٠١/٥،وتفسير حدائق الروح والريحان ٣٠١/٣٢.

(٣) ينظر:الوسيط للواحدي ٥٥١/٤، والمحرر الوجيز ٥٢٠/٥، والجامع لأحكام القرآن٢٠/ ١٨٠.

وَالْمَسَاعِي وَصَرْفِ الْأَعْمَارِ فِي أَعْمَالِ الدُّنْيَا حتي يموت لفي خسر وَضَلَالٍ عَنِ الْحَقِّ إلا من كانت تجارته علي ما ذكر من الاستثناء في قوله تعالي:﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ...﴾ (١).

ومما يدل علي عموم لفظ(الإنسان) هنا وأن(ال) فيه للجنس أن يحل محل(ال) كلمة (كل) ويصح الاستثناء من مدخولها؛ فهنا لو قيل: كل إنسان في خسر لكان هذا هو المعنى، ومعنى الآية أن الله أقسم قسمًا على حال الإنسان أنه في خسر أي: في خسران ونقصان في كل أحواله، في الدنيا وفي الآخرة إلا من استثنى الله(ﷻ)(٢).

فالاستثناء متصل لعموم جنس الإنسان، ولا نقف عندما اختلفوا فيه من نزول الآية في أفراد معينين؛ فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية، وهذا الاستثناء ينقطع إذا ما كان الإنسان خاصًا بالمعهودين الذين ذكروهم، والسياق على ظاهره لا يخص الإنسان بفلان أو بآخر، والتعميم فيه مستفاد صراحة من الإطلاق ثم استثناء﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وإنما استثنى الذين آمنوا من الإنسان؛ لأن الإنسان بمعنى الجمع لا بمعنى الواحد، وَلَا وَجْهَ لِمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الصَّحَابَةَ أَوْ بعضهم، فَإِنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ لَا يَخْرُجُ عَنْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ يَتَّصِفُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ والتواصي بالحق والصبر(٣).

ومما يؤكد اتصال الاستثناء-أيضًا- تنكير لفظ(خسر) فَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا نَوْعَ الْخُسْرَانِ فِي أَيِّ شَيْءٍ، بَلْ أَطْلَقَ لِيَعُمَّ، وَجَاءَ بِحَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ؛ لِيُشْعِرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُسْتَغْرِقٌ فِي الْخُسْرَانِ، وَهُوَ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ.

---

(١) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة بن المثنى ٢/ ٣١٠، وتأويلات أهل السنة للماتريدي ١٠/ ٦١٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٢/ ٢٧٩.

(٢) ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان ٣٢/ ٣٠٢، وتفسير جزء عم لمحمد صالح العثيمين صـ ٣٠٧.

(٣) ينظر: فتح القدير للشوكاني ٥/ ٦٠١، والتفسير البياني للقرآن الكريم لبنت الشاطئ ٢/ ٨١.

المبحث الثاني

أثر السياق في ترجيح انقطاع الاستثناء في الآيات محل البحث

كما للسياق دور كبير في ترجيح اتصال الاستثناء كذلك له نفس الدور في ترجيح انقطاع الاستثناء، وسيظهر دوره في ترجيح انقطاع الاستثناء في الآيات الآتية:

١- قوله تعالي:﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾.[الصافات].

المناسبة السياقية-القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: بعد افتتاح سورة الصافات بتوبيخ المشركين على إنكارهم البعث مع تظاهر الأدلة على وجوده، وسوقه لبعضها مما لا يمكن رده ولا جحده فقال:﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥... فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ على سبيل التوبيخ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ... وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ١٦﴾ وبعد سرد بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم حتي يأخذ المشركون عبرة، بدأ تعالى ببيان بعض افتراءات المشركين وتفنيدها، ومن ذلك إثبات الولد لله، وكذا نسبة البنات له بقولهم: الملائكة بنات الله، وجعل البنين لأنفسهم، ثم افتراؤهم بجعل الملائكة إناثًا لا ذكورًا، قال تعالي: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ١٥٣﴾ ثم استكمل تعالى تلك الافتراءات وما سيلقونه من العذاب بسببها، واستثنى منهم عباده المخلصين، فقال:﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩﴾ ثم استثنى فقال:﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله:﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ اختلف فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ، فقيل: منقطعٌ، والمستثنى منه إمَّا

فاعلُ(جَعَلُوا) إن حمل علي المشركين، أي: جعلوا بينه وبين الجِنَّةِ نَسَبًا إلاَّ عبادَ الله لا يجعلون ذلك، أو إنه ضمير﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ وفِي الْآيَة تَقْدِيمًا وتأخيرًا، فَكَأَن الله قَالَ: وَلَقَد علمت الْجنَّة أن المشركين لمحضرون الْعَذَاب لقولهم ذلك لكنَّ عباد الله المخلصين لَا يحْضرُون العذاب، ثمَّ قَالَ:﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وعلى هذا فتكون جملةُ التسبيحِ معترضةً، أو إنه فاعلُ(يَصِفُونَ) أي: لَكِنَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ بَرِيئُونَ عَنْ أَنْ يَصِفُوا اللهَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وإنما يَصْفُونه بما يَليق به تعالى. وإمَّا إن حملنا فاعلُ(جَعَلُوا) أو يصفون أو ضمير﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ للعموم، أي أريد به ما يعم المؤمن والكافر، فالاستثناء متصل، أي وجَعَل الناسَ، ثم استثنى منهم هؤلاء[1].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح كون الاستثناء منقطعًا وكون المخاطبون هم المشركون خاصة، ثم استثنى الله الْمُخْلَصِينَ من عِبَادَهِ، والسياق الكلي للسورة وكذا الجزئي يدلان علي ذلك، فالسورة من أولها توبيخ للمشركين على إنكارهم البعث، ثم ناقش الله المشركين في عقائدهم بعد أن أورد لهم أخبار جماعة من أنبياء بني إسرائيل، من قبيل إعداد المقدمات الموطّئة لهذه المناقشة، فوجه الله لهم إنذارا يتضمن توبيخهم وتقريعهم على فساد اعتقادهم، وبيان بعض افتراءاتهم وتقبيحها وتفنيدها فنسبوا البهتان إلى الله، ومن ذلك إثبات نسبة البنات لله بقولهم: الملائكة بنات الله، وجعل البنين لأنفسهم فقال:﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ١٤٩﴾ وهي عطفًا على قوله تعالي في أول السورة:﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي استفت واسأل هؤلاء المشركين يا محمد على سبيل التوبيخ والتقريع والتنكير في قسمتهم وسفه عقولهم، وَالْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ ثَبَتَ لَكُمْ حتي تَحْكُمُوا لِلَّهِ بِالْبَنَاتِ وَهُمُ الْقِسْمُ الَّذِي تَكْرَهُونَهُ، كما قال تعالى:﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣٦٠/٢٦، وأنوار التنزيل للبيضاوي٢٠/٥، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٥٢/١٦، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٩١/٢٣.

وَهُوَ كَظِيم ٥٨﴾[النحل:٥٨]، وَلَكُمْ بِالْبَنِينَ وَهُمُ الْقِسْمُ الَّذِي تُحِبُّونَهُ! ثم انتقل من هذا الكلام إلى ما هو أشد منه فقال:﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ١٥٠﴾ أي بل كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث، وما شاهدوا خلقهم؟ فلم يقم لهم دليل على قولهم لا من العقل ولا من النقل، ثم انتقل سبحانه إلي فاجعة وافتراء آخر فقال:﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾ إذ لا دليل لهم ولا شبهة دليل، ولذا أنكر سبحانه عليهم حكمهم الجائر فقال:﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾ أليس لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون!﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِين ١٥٦﴾ حجة واضحة﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾ ويلاحظ من تتابع هذه الاستفهامات وتكرارها مدى التوبيخ والتبكيت والإنكار الشديد لأقاويلهم وتسفيه أحلامهم، فإن ما يقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل أصلًا. ثم استكمل السياق القرآني افتراءات المشركين فجاء بفاجعة أكبر، وهي نسبة الملائكة إلي الله تعالى نسبًا قال تعالي:﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ فقالوا: الملائكة بنات الله، والقائل بهذه المقالة- علي ما ورد في سبب نزول الآية- قريش وأجناس من العرب منهم جهينة وبنو سلمة وخزاعة وكنانة وبنو مليح قالوا: إن الله خطب إلى سادات الجن، فزوجوه من سروات بناتهم، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن، وقيل: القبائل هم اليهود، قالوا: إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم، وقيل: قالوا: إنّ الله والشيطان أخوان، وكل هذا تشبيه الخالق بالبشر، ووصفه بالمادية الجسدية، وهو كفر، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، ولذا أكد علي عذابهم فقال:﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي لقد علمت الملائكة أن هؤلاء الذين ادعوا لله نسبًا لمحضرون للحساب والعذاب في النار لكذبهم وافترائهم، ثم نزّه تعالى نفسه عن كل ما لا يليق به من نقائص البشر فقال:﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي تنزه وتعالى علوًا كبيرًا عما يصفه به المجرمون ثم استثني تعالى استثناء منقطعًا فقال:﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ١٦٠﴾ أي لَكِنَّ هؤلاء لم يجعلوا

بينه وبين الجِنَّةِ نَسَبًا، أو لَكِنَّ هؤلاء ناجون فلَا يحْضرُون العذاب أو لَكِنَّ هؤلاء بَرِيئُونَ عَنْ أَنْ يَصِفُوه تعالي بِشَيْءٍ من ذلك بل يَصْفُوه بما يَليق به [1].

يتضح من سياق الآيات وأسباب النزول ترجيح انقطاع الاستثناء وعود المستثنى منه علي المشركين- كما سبق- وأميل أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا نَشَأَ عَنْ قَوْلِهِ:﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ وقد ذكر ابن كثير أن أحد العلماء جَعَلَ هَذَا الِاسْتِثْنَاءَ مِنْ قَوْلِهِ:﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ وقال:" في هذا الذي قاله نظر"[2]. والسبب في ترجيح عوده إلي قَوْلِهِ:﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أولًا لأنه أقرب مذكور؛ ولارتباطه بقوله:﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ فالمخلص لا يصف ربه إلا بما يليق به، فقوله:﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ شهادةٌ منهم متضمِّنة تبرئهم مِن أنْ يَصفُوه تعالَى بحكمِ اندراجِهم في زُمرة المُخلصين على أبلغِ وجهٍ وآكدِه[3]. ومما يدل علي ذلك ما روي عن ابن عباس في قوله:﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قال: فإنهم لا يجعلون لله صاحبة ولا ولدًا [4].

والسياق البعدي يدل علي هذا أيضًا، فقوله:﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢﴾ فهو تعليل لبراءة المخلصين عما ذكر وتحدى للمشركين، وإثبات عجزهم عن إضلال وإغواء أحد أو فتنته، والمعني: فإنكم وآلهتكم التي تعبدون من دون الله لستم بقادرين على فتنة أحد من المخلصين عن دينه وإضلاله بأن يقولوا ما قلتم إلا من هو أضل منكم وأصر على الكفر واستحق الجزاء الأليم علي ذلك [5].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣٥٩/٢٦ وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣٤/١٥، لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي صـ١٦٧، وفتح القدير للشوكاني ٤٧٤/٤ وما بعدها، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة: د وهبة الزحيلي ١٤٦/٢٣.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٣٨.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢٠٩/٧، والتحرير والتنوير لابن عاشور٢٣/ ١٩١.

(٤) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ١٩/ ١٢٣.

(٥) ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د/ وهبة الزحيلي ٢٣/ ١٥١.

٢- قال تعالى:﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤﴾.[ص].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: حذر تعالي المشركين من عدم استجابتهم لدعوة النبي(ﷺ) وبيّن أن السبب في ذلك هو استكبارهم عليه وافتخارهم بأموالهم وأنسابهم على فقراء المسلمين﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ٥... مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا...﴾ ثم بين فعل إبليس الذي عصى أمر ربه بالسجود لآدم، وأن السبب في ذلك هو استكباره على آدم؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه، فذكرت قصته هنا تنبيهًا على وجود التشابه محذرًا من هذه الخصلة ومن الاقتداء بإبليس، قال تعالي:﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣﴾ استجابة سريعة لأمر الله لا يراودها شك، ثم استثني فقال:﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله تعالى:﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ مستثنى من قوله تعالى:﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وللعلماء في كون إبليس من الملائكة أم لا؟ قولان: أحدهما أنه منهم، وبهذا يكون الاستثناء متصلًا، والقول الثاني: أنه من الجن ولم يكن من الملائكة، وبهذا يكون الاستثناء منقطعًا، وتكون إلا بمعني لكن، أي لكن إبليس استكبر وَكانَ مِنَ الْكافِرِينَ، وكون إبليس من الملائكة هو قَوْل الْجُمْهُور وأكثر المفسرين كابن عباس وابن مسعود وسعيد بن الْمُسَيَّب وَابْن جُرَيْج وَقَتَادَة وَغَيْرِهِم، وَهُوَ ظَاهِرُ الآيَةِ، واستدلوا علي ذلك بأمور-

١- احْتَجَّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ مَلَكٌ فِي الْأَصْلِ بِمَا تَكَرَّرَ فِي الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مِنْ مثل قَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قَالُوا: فَإِخْرَاجُهُ بِالِاسْتِثْنَاءِ مِنْ لَفْظِ الْمَلَائِكَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْهُمْ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَالظَّوَاهِرِ إِذَا كَثُرَتْ صَارَتْ بِمَنْزِلَةِ النَّصِّ،

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ الِاتِّصَال لَا الِانْقِطَاع، وأن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ولهذا قال﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف] فلولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصيًا ولما استحق الخزي والنكال.

٢- وَأَمَّا من احتج بأن إبليس ليس من الملائكة بقوله:﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، وقوله:﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ وإبليس ليس كذلك فَهُوَ عَامٌّ مَخْصُوصٌ، إِذْ عِصْمتهم لَيْسَت لِذَاتِهم، إِنَّمَا هِيَ بِجَعْلِ اللهِ لهم ذلك، وأما إِبْلِيسُ فَسَلَبَه اللهُ تَعَالَى الصِّفَاتِ الْمَلَكِيَّةَ وَأَلْبَسَهُ ثِيَابَ الصِّفَاتِ الشَّيْطَانِيَّةِ، ويدل علي ذلك ما روي عن قَتَادَةَ قَالَ: أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَفْضَلِ صِنْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنَّةُ، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ إِبْلِيسُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَكَانَ اسْمُهُ عَزَازِيلَ، وَكَانَ مِنْ أَشْرَافِ الْمَلَائِكَةِ، فَلَمَّا عَصَى اللهَ غَضِبَ عَلَيْهِ فَلَعَنَهُ فَصَارَ شَيْطَانًا وأَبْلَسَ بَعْدُ. وقَالُوا: لَا حُجَّةَ لِمَنْ خَالَفَنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ لِأَنَّ الْجِنَّ قَبِيلَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، خُلِقُوا مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ وخلقت الملائكة من نور غير هذا الحيّ، وخُلقت الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وسعيد بن المسيب، وَالْعَرَبُ تَعْرِفُ فِي لُغَتِهَا إِطْلَاقَ الْجِنِّ عَلَى الْمَلَائِكَةِ؛ لأن الجن مأخوذ من الاجتنان، وهو الستر، فالملائكة جن؛ لأنهم يُجنُّون عن العيون فلا تراهم كما لا ترى الجن، وَمِنْ إِطْلَاقِ الْجِنِّ عَلَى الْمَلَائِكَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[الصافات: ١٥٨] عِنْدَ مَنْ يَقُولُ من المفسرين بِأَن الْمُرَادَ بِذَلِكَ قَوْلهم: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وهذا خلافٌ مشهور.

والقول الثاني: أنه ما كان إبليسُ من الملائكة طرفةَ عين قطّ، وإنه أصل الجنّ، كما أن آدم أصل الإنس. قاله ابن عباس في رواية، والحسن، وبَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ والْمُعْتَزِلَةُ، واختاره الزمخشريّ والعكبري والزجاج، واستدلوا علي ذلك بعدة أمور-

١- عَصْمَة الْمَلَائِكَة مِن ارْتِكَاب الْكُفْرِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ إِبْلِيسُ، كما قال تعالى:﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ فَعَمَّ، فَلَا يَجُوزُ عَلَيهم الْكُفْرُ وَلَا الْفِسْقُ، كَمَا لَا يَجُوز عَلَى رُسُلِهِ مِنَ الْبَشَرِ، ولو كان من الملائكة لما امتنع عن امتثال أمر ربه؛ لأنهم كما قَال تَعَالى:﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٦﴾[التحريم] وَقَالَ:﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ٢٧﴾[الأنبياء].

٢- تصَرَّيح الله بِأَنَّه مِنَ الْجِنِّ، وَالْجِنّ غَيْر الْمَلَائِكَة، قال تعالي:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإبليس لم يكن من الملائكة، ولكنه جنّي خلقه الله من مارج من نار، وقد روي أنه كَانَ مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَرْضِ وأفسدوا فيها فقَاتَلَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَسَبَوْهُ وكان صَغِيرًا، فذهب به إلى السماء فكان مع الملائكة فتعبَّد معها، وَخُوطِبَ، فلما أمِروا بالسجود لآدم سجدوا، وأبى إبليس، ونضح كل إناء بما فيه، فلذلك قال الله:﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾، ولهذا يحمل استثناؤُه منهم على أنه لما كان يتعبد مع الملائكة، ويعمل بأعمالهم فنُسب إليهم، كالرجل الحليف في القبيلة الذي ليس منها يُنسب إليها وهو ليس في الحقيقة منها، فمن طالت اقامته مع قوم واندمج فيهم اعتبر منهم وإن لم يكن من قبيلتهم، وقد قال(ﷺ) فيما صح عنه:[ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ][1].

٣- الأمر بالسجود لآدم تناول إبليس وإن لم يكن من الملائكة، إما لأنه كان في صحبة الملائكة، وعبد الله عبادتهم كما سبق، وإما لأن الجن أيضًا كانوا مأمورين مع الملائكة بالسجود لآدم لكنه استغنى بذكر الملائكة عن ذكره أو ذكرهم، والضمير في{فَسَجَدُوٓاْ} راجع إلى القبيلين كأنه قال: فسجد المأمورون بالسجود إلا إبليس. فإنه إذا عُلم أن الأكابر مأمورون بالتذلل لأحد، علم أن الأصاغر أيضًا مأمورون به، فلما

---

(١) أخرجه البخاري في جامعه الصحيح ٨/١٥٥-ح/٦٧٦٢(كِتَابُ: الفَرَائِضِ، بَابُ: مَوْلَى القَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَابْنُ الأُخْتِ مِنْهُمْ).

أمروا بالسجود لآدم كان الجن أو الجنى الذي مع الملائكة أجدر بأن يتواضع، كما لو قام لمقبل على المجلس سراة القوم وأكابرهم كان القيام على واحد بينهم هو دونهم في المنزلة أوجب، حتى إن لم يقم عنف. وقيل له: قد قام فلان وفلان، فمن أنت حتى تترفع عن القيام!

٤- لم يكن إبليس من الملائكة بل كان من الجن؛ لأنه خلق من نار، والملائكة من نور، ولم يثبت أنهم خلقوا من شيء غير ذلك، قال تعالي:﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّار وَخَلَقْتَهُ مِن طِين ١٢﴾ وقال:﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ وفِي الصَحِيحِ عن النبي(ﷺ) أنه قال[خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ][(١)] وأيضًا ليس إبليس من الملائكة؛ لأن له ذرية، والملائكة لا ذرية لها فلا تتناسل ولا تتوالد، كما قال تعالي:﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ﴾[(٢)].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح انقطاع الاستثناء؛ لأنه المناسب للسياق، فقوله تعالي:﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣﴾ فيه تأكيدان لِلْمُبَالَغَة فِي التَّعْمِيمِ، (كل) لِقَصْدِ الْإِحَاطَةِ و(أجمعون) لِقَصْدِ الِاجْتِمَاعِ، فأفادا معًا أنهم سجدوا عن آخرهم ما بقي منهم ملك إِلَّا سَجَدَ، وَأَنَّهُمْ سَجَدُوا جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ غَيْرَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَوْقَاتٍ[(٣)]. كما أَنَّ الْمَلَائِكَة مَعْصُومُون؛ لدلالة العديد من الآيات القرآنية علي ذلك،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٢٩٤-ح/ ٢٩٩٦(كتاب: الزُّهْدِ، بَابُ: فِي أَحَادِيثَ مُتَفَرِّقَةٍ).

(٢) هذا خلاصة ما قال العلماء، وينظر في ذلك: جامع البيان ٥٠٢/١ وما بعدها، ومعاني القرآن للزجاج ١١٣/١ وما بعدها، ومعاني القرآن للنحاس ١٣٨/٦، والكشف والبيان للثعلبي١٧٥/٦ وما بعدها، والكشاف للزمخشري ١٠٥/٤، وتفسير القرآن لابن كثير ١٥١/٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩٤/١، ٢٥/١٠، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٧١/١، والبحر المحيط ٢٤٧/١ وما بعدها، ومحاسن التأويل للقاسمي ٢٩٠/١ وما بعدها، وأضواء البيان الشنقيطي ٢٩٠/٣.

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري ٤/ ١٠٥، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٥١٠.

وَإِبْلِيسُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، وَمَا يَذْكُرُهُ الْمُفَسِّرُونَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ كَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ الْمَلَائِكَةِ ورئيسًا فيهم من صِنْفٌ يُقَالُ لَهُمُ الْجِنَّةُ، خُلِقُوا مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ، وَأنه مِنْ خُزَّانِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّهُ كَانَ اسْمُهُ عَزَازِيلُ كُلُّهُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا مُعَوَّلَ عَلَيْهَا، وقد نص القاضي عياض علي أن ما يذكر من قصة إبليس مما سبق إلى آخر ما حكوه لم يتفق عليه، بل الأكثر ينفون ذلك وأنه أبو الجن(١). وقال ابن كثير بعد أن نقل كثيرًا من الآثار في مثل هذه المعاني:" روى في هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التي تُنْقَل لِيُنْظَرَ فِيهَا، والله أعلم بحال كثير منها، ومنها ما قد يقطع بكذبه؛ لمخالفته للحق الذي بأيدينا، وفي القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة"(٢).

وأصرح دليل علي أن إبليس من الجن وليس من الملائكة قوله تعالي:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ فقال: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ ولم يقل من الملائكة، ثم إنه رتب على كونه من الجن بالفاء الدَّالَّةِ عَلَى التَّعْلِيلِ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أَيْ: لِعِلَّةِ كَيْنُونَتِهِ مِنَ الْجِنِّ؛ لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ فَرَّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلَائِكَةِ؛ لِأَنَّهُمُ امْتَثَلُوا الْأَمْرَ وَعَصَا هُوَ، فدل بمسلك الإيماء والتنبيه أن علّة فسقه عن ربه كونه من أصل الجن لا مِن أصْلِ الملائكة(٣).

وأما من قال إن كلمة الجنّ يصح إطلاقها لغة على الملائكة؛ لأنها من الاجتنان وهو الستر، كما قَال تَعَالَى:﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾[الصَّافَّات: ١٥٨] فالحقيقة أَنَّ الْمَلَكَ يُسَمَّى جِنًّا بِحَسَبِ أَصْلِ اللُّغَةِ لَكِنَّ لَفْظَ الْجِنِّ بِحَسَبِ الْعُرْفِ اخْتَصَّ بِغَيْرِهِمْ،

---

(١) ينظر: الشفا للقاضي عياض ٢/ ١٧٧، والجواهر الحسان للثعالبي ١/ ٢١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير٥/ ١٥٢.

(٣) ينظر: الكشاف للزمخشري ٢/ ٧٢٧، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/ ٢٩٠.

كَمَا أَنَّ لَفْظَ الدَّابَّةِ وَإِنْ كَانَ بِحَسَبِ اللُّغَةِ الْأَصْلِيَّةِ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يَدِبُّ لَكِنَّهُ بِحَسَبِ الْعُرْفِ اخْتَصَّ بِبَعْضِ مَا يَدِبُّ، وهذا كثير في القرآن، فَتُحْمَلُ آيَةُ الصافات عَلَى اللُّغَةِ الْأَصْلِيَّةِ لدلالة السياق، وآيَةُ الكهف عَلَى الْعُرْفِ الْحَادِثِ، وإلا فإذا حملت آيَةُ الكهف علي الملائكة فستعارض بأنه يمكن حملها علي الجن، وهو ما يؤيده العرف، علي أن هناك من يفسر (ٱلْجِنَّةِ) في آيَةُ الصافات بالجن[1].

وقد جاء السياق القرآني بما يؤكد أن إِبْلِيس مِنَ الْجِنِّ، قال تَعَالَى:﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ﴾[سَبَإٍ] فالْآيَةُ صَرِيحَةٌ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَلَكِ والْجِنِّ.

كما أن السياق القرآني يقرر صراحة- في كثير من الآيات- أن الجن خلقوا من نار كقوله تعالي:﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾[الحجر] وقال:﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّار ١٥﴾[الرحمن] وعن حكاية قول إبليس:﴿أَنَا۠ خَيْر مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّار وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِين ١٢﴾[الأعراف] وأما الْمَلَائِكَةَ لَيْسُوا مَخْلُوقِينَ مِنَ النَّارِ بَلْ مِنَ النُّورِ، لِمَا روى عَنْه(ﷺ) أَنَّهُ قَالَ:[خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ] وقال:[خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورِ الْعِزَّةِ وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ نَارِ الْعِزَّةِ][2] والنبي (ﷺ) وحده هو المعتمد فيما فيه توضيح لما أجمله القرآن أو أطلقه أو سكت عنه. وأيضًا إِبْلِيسَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ لِقَوْلِ الله:﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾[الْكَهْفِ:٥٠] وَهَذَا صَرِيحٌ فِي إِثْبَاتِ الذُّرِّيَّةِ لَهُ، وَالْمَلَائِكَةُ لَا ذُرِّيَّةَ لَهُمْ؛ لِأَنَّ الذُّرِّيَّةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ مِنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالْمَلَائِكَةُ لَا أُنْثَى فِيهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ [الزُّخْرُفِ: ١٩] أَنْكَرَ عَلَى مَنْ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْأُنُوثَةِ، فَإِذَا انْتَفَتِ الْأُنُوثَةُ انْتَفَى التَّوَالُدُ لَا مَحَالَةَ فَانْتَفَتِ الذُّرِّيَّةُ.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢/ ٤٢٩.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده ٢/ ٢٧٨-ح/ ٧٨٨(مَا يُرْوَى عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ).

وأما من قال: لو لم يكن من الملائكة لم يؤمر بالسجود، فأجيب عن هذا بأن توجه الخطاب إليه وأمره بالسجود مع الملائكة؛ إما لأن الجن أيضًا كانوا مأمورين مع الملائكة لكنه استغنى بذكرهم لمزيد شرفهم عن ذكر الجن كما سبق في أدلة القائلين بانقطاع الاستثناء، أو لأن إبْليس كان مأمورًا صريحًا لا ضمنًا كما يشير إليه ظاهر قوله تعالى:﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾[الأعراف:١٢] فوجود إبليس مع الملائكة لا يستلزم أن يكون منهم، فإنه كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله، ومثل ذلك كمثل أن تقول: حضر بنو فلان إلا محمدًا، ومحمد ليس من بنى فلان هؤلاء، وإنما هو معهم بالمجاورة أو المصاحبة أو غير ذلك [1].

ومما يدل علي أن إبليس ليس من الملائكة قوله تعالي:﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينا ٦١ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ﴾ فالآية تدل علي إن إبليس ليس من الملائكة، إذ المدار أنه كرمه الله حتي وصل الي درجتهم وأصبح معهم فلما كرم الله آدم(عليه السلام) عليه تحركت فيه مشاعر ومشاعل الحقد والحسد والعلو والاستكبار التي هي من طبع الخلق الناري المكلف، ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينا ٦١﴾ وهذا التجرأ لا يصدر من الملائكة المطبوعين علي الطاعة الذين عرفوا الله وعرفوا صفاته من القدرة والجبروت وغيرها، فهذا إنما يصدر من مكلف علي سبيل الاختيار فلما كان ابليس مختار وعبد الله حق العبادة رفعة لأن يكون مع الملائكة، لكنه لما عصي شأنه شأن الإنسان المكلف نزل من تلك المكانة، ولذا ذكر صاحب التحرير والتنوير أن قوله تعالي:{فَسَجَدُوا} مَعْطُوف بِفَاءِ التَّعْقِيبِ إشارة إِلَى مُبَادَرَةِ الْمَلَائِكَةِ بِالِامْتِثَالِ، وَلَمْ يَصُدَّهُمْ مَا كَانَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ التَّخَوُّفِ مِنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَخْلُوقُ مَظْهَرَ فَسَادٍ وَسَفْكِ دِمَاءٍ؛ لِأَنَّهُمْ مُنَزَّهُونَ عَنِ

---

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري ٣/ ٩١، وروح المعاني للألوسي ١/ ٢٣١، والتفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي ٨/ ٤١.

الْمَعَاصِي، أما إِبْلِيس فقَدْ بَدَتْ فيه نَزْعَةٌ كَانَت كَامِنَة فِي جِبِلَّتِهِ وَهِيَ نَزْعَةُ الْكِبْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَلَمْ تَكُنْ تَظْهَرُ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَلَأَ الَّذِي كَانَ مَعَهُمْ كَانُوا عَلَى أَكْمَلِ حُسْنِ الْخِلْطَةِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مُثِيرٌ لِمَا سَكَنَ فِي نَفْسِهِ مِنْ طَبْعِ الْكِبْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَلَمَّا طَرَأَ عَلَى ذَلِكَ الْمَلَأِ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ، وَأُمِرَ أَهْلُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِتَعْظِيمِهِ كَانَ ذَلِكَ مُورِيًا زِنَادَ الْكِبْرِ فِي نَفْسِ إِبْلِيسَ، فَنَشَأَ عَنْهُ الْكُفْرُ بِاللهِ وَعِصْيَانُ أَمْرِهِ [1].

٣- قوله تعالى:﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُور شَكُورٌ ٢٣﴾.[الشوري].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: يدور محور سورة الشورى من أولها حول إنكار الشرك على المشركين، وسوق الأدلة على بطلان هذا الشرك، ثم وبخت وهددت المشركين على إصرارهم على كفرهم مع كل هذه النعم، قال تعالي:﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيم ٢١﴾، ثم صور- سبحانه- أحوال الناس يوم القيامة تصويرًا مؤثرًا وما سوف يكون من أمر الظالمين والمؤمنين في ذلك اليوم، قال تعالى:﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ﴾ ثم وضحت حال المؤمنين﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ والآية استمرار للسياق والموضوع كما هو المتبادر، ثم أمر سبحانه نبيه(ﷺ) أن يؤكد لأولئك المشركين من قومه أنه لا يقبل على أداء رسالته أي أجر، وإنما يريد أن تترك له حرية الدعوة إلى الله، حتى لا تتأزم العلاقات بينه وبين ذوي

(١) ينظر: التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١/ ٤٢٣.

قرباه منهم﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ "وَضَمِيرُ جَمَاعَةِ الْمُخَاطَبِينَ مُرَادٌ بِهِ الْمُشْرِكُونَ لَا مَحَالَةَ"(١). ثم استثني فقال:﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله تعالي:﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ مستثني من الأَجر في قوله تعالي:﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ ويجوز أن يكون استثناء متصلاً من الجنس، فعلى هذا يكون سائلاً أجرًا، والمقصود بالأجر المودة فِي القربى، وقد أشار ابن عباس في رواية الضحاك إلى هذا المعنى، ثم قال: نُسخت هذه بقوله:﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ﴾ الآية[سبأ:٤٧](٢). والقربى- علي هذا- بمعنى الأقارب، أو ذوي القربى، والمعنى: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تودّوا أقاربي وتحفظوني فيهم، والمقصد على هذا وصية بأهل البيت، ومما يدل علي هذا القول ما رُوِيَ أنه(ﷺ) لما قَدِم المدينةَ كانت تَنُوبه نوائبُ وليس في يده سَعَةٌ، فقال الأنصار: إن هذا الرجُل قد هداكم الله به، وليس في يده سَعَةٌ، فاجْمَعوا له من أموالكم ما لا يضرُّكم، ففعلوا ثم أتَوْه به، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَدَانَا اللهُ بِكَ، وَأَنْتَ ابْنُ أُخْتِنَا، وَتَعْرُوكَ حُقُوقٌ وَمَا لَكَ سِعَةٌ، فَاسْتَعِنْ بهذا على ما ينوبك، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، فَرَدَّهُ. ورُوِيَ أَنَّ شَبَابًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَاخَرُوا الْمُهَاجِرِينَ وَصَالُوا بِالْقَوْلِ، فبلغ ذلك الرسول(ﷺ) فنزل:﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ عَلَى مَعْنَى: أَنْ لَا تُؤْذُونِي فِي قَرَابَتِي وَتَحْفَظُونِي فِيهِمْ. وَهُوَ قَوْل سعيد بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ وَعَمْرُو بْنُ شُعَيْبٍ، وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ قَرَابَتُكَ الَّذِينَ أُمِرْنَا بِمَوَدَّتِهِمْ؟ فَقَالَ: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا. وَقِيلَ: هُمْ وَلَدُ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ. وهذا يقتضي أن الآية مدنية.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر لابن عاشور ٢٥/ ٨١.

(٢) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٦٤.

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعًا، أي: لا أسألكم أجرًا قط، ولكني أسألكم أن تودوا قرابتي الذين هم قرابتكم ولا تؤذوهم، والقربى بمعنى القرابة، وفي بمعنى من أجل، وقيل: المعنى: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أَنْ تودوني بأن تَكُفُّوا شَرَّكُمْ عَنِّي وَتَذَرُونِي أُبَلِّغُ رِسَالَاتِ رَبِّي، فإِنْ لَمْ تَنْصُرُونِي فلا تهيجوا علي ولَا تُؤْذُونِي في نفسي بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ، فالمقصد على هذا استعطاف قريش، ولم يكن فيهم بطن إلا وبينه وبين النبي(ﷺ) قرابة. وَمما يدل علي هذا القول ما رُوِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اجْتَمَعَوا فِي مَجْمَعٍ لَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَتَرَوْنَ مُحَمَّدًا يَسْأَلُ أَجْرًا عَلَى مَا يَتَعَاطَاهُ؟ فَنَزَلَتْ. وَقِيلَ: الْخِطَابُ مُتَوَجِّهٌ إِلَى قُرَيْشٍ حِينَ جَمَعُوا لَهُ مَالًا وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ عَلَى أَنْ يُمْسِكَ عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ، فَلَمْ يَفْعَلْ، وَنَزَلَتْ. فَالْمَعْنَى: لَا أَسْأَلُكُمْ على ما أدعوكم إليه مَالًا وَلَا رِيَاسَةً، وَلَكِنْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَرْعَوْا حَقَّ قَرَابَتِي وَتُصَدِّقُونِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، يعني أنكم قومي وأحق من يجيبني ويطيعني، فإذ قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى وَتُمْسِكُوا عَنْ أَذِيَّتِي وَأَذِيَّةِ مَنْ تَبِعَنِي ولا تهيجوا عليّ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُمْ[1]. وهذا يقتضي أن الآية مكية، وكذا محكمة، إذ ليس هناك استثناء علي وجه الحقيقة.

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح انقطاع الاستثناء في الآية لعدة أمور-

أولًا: لأنه قول جمهور العلماء واختيار المحقِّقين وحكموا بصحته[2]، وثانيًا: السياق بنوعيه يدل علي ذلك، وذلك يشمل-

---

(١) ينظر: تفسير القرآن لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٦ وما بعدها، وأسباب النزول للواحدي صـ ٣٨٩ وما بعدها، وغرائب التفسير للكرماني ٢/ ١٠٥١ وما بعدها، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٣ وما بعدها، ومدارك التنزيل للنسفي ٣/ ٢٥٢ وما بعدها، والبحر المحيط ٩/ ٣٣٤ وما بعدها.

(٢) ينظر: معانى القرآن للأخفش ٢/٥١٠، ومعاني القرآن للزجاج ٤/٣٩٨، وزاد المسير ٤/٦٤.

١- السياق غير اللغوي(الخارجي) فالتفسير الذي عليه جمهور الْمُفَسِّرِينَ، وأكثر علماء السلفِ أن النبيَّ(ﷺ) له في كُلِّ فَخِذٍ مِنْ قريشٍ قرابةً، فقد أخرج الْبُخَارِي عَنْ[عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَيْسَرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ طَاوُسًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قُرْبَى آلِ مُحَمَّدٍ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَجِلْتَ إِنَّ النَّبِيَّ(ﷺ) لَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا كَانَ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ، فَقَالَ: إِلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ](١). وقَالَ الشَّعْبِيُّ:" أَكْثَرَ النَّاسُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَكَتَبْنَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ نَسْأَلُهُ عَنْهَا، فَكَتَبَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) كَانَ أَوْسَطَ النَّاسِ فِي قُرَيْشٍ، لَيْسَ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِهِمْ إِلَّا وَقَدْ ولده، فَقَالَ اللهُ: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي فِي قَرَابَتِي مِنْكُمْ. فَارْعَوْا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَصَدِّقُونِي"(٢).

فعلي هذا قد اختلف الصحابة في المراد من الآية(اتصالًا وانقطاعًا) فبين لهم حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس- وهو من أقارب النبي(ﷺ) وأعلمهم- المراد، وليس في التأويلات الأخرى ما في رتبة ذلك ولا قريب منه، فبين أنهم جميع العرب لقرابته(ﷺ) منهم جميعًا، فهم إما عدنانيون وقريش منهم، وإما قحطانيون والأنصار منهم، وقرابته (ﷺ) من كل قد علمت، وذلك يستلزم قرابته من جميع العرب (٣).

وروي عن ابن عباس-أيضًا- قال: كان لرسول الله(ﷺ) قرابة في جميع قريش، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال: يا قوم إذا أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظي ونُصرتي منكم، فإنكم قومي وأحقّ من أطاعني وأجابني. وسئل مجاهد عن هذه الآية فقال: أما إني لا أقول قول الخشبية، يقول: يا

---

(١)أخرجه البخاري في جامعه الصحيح ٦/ ١٢٩-ح/ ٤٨١٨(كِتَابُ: تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ: قَوْلِهِ:{إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى}.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٩/ ٣٣٤.

(٣) ينظر: روح المعاني للألوسي ١٣/ ٣١، والتفسير الحديث لمحمد عزت دروزة ٤/ ٤٦١.

معشر قريش، لا أسألكم على ما أقول أجرًا، ارقبوني في الذي بيني وبينكم، لا تعجلوا إلي، ودعوني والناس[1].

وأمَا ما قيل من أَن الْآيَة مَنْسُوخَة بقوله:﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْر فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهَذَا القَوْل غَيْرُ مَرْضِيٍّ عِنْد أهل الْمعَانِي؛ لِأَنَّ مَوَدَّةَ النَّبِيِّ(ﷺ) وَكَفَّ الْأَذَى عَنْهُ وَمَوَدَّةَ أَقَارِبِهِ مِنْ فَرَائِضِ الدِّينِ، وَكَفَى به قُبْحًا قَول النَّبِيّ(ﷺ):[مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللَّهُ زُوَّارَ قَبْرِهِ الْمَلَائِكَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ أَيِسٌ الْيَوْمَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ بَيْتِي فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِي شَفَاعَتِي][2]. قَالَ النَّحَّاسُ: وَمَذْهَب عِكْرِمَة لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ، قَالَ: كَانُوا يَصِلُونَ أَرْحَامَهُمْ فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ(ﷺ) قَطَعُوهُ فَقَالَ: قُلْ لا أسئلكم عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي وَتَحْفَظُونِي لِقَرَابَتِي وَلَا تُكَذِّبُونِي، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْبُخَارِيِّ، وَعَلَيْهِ لَا نَسْخَ. وَهَذِهِ أَقَاوِيل السَّلَفِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، فَلَا يَجُوز الْمَصِيرُ إِلَى نَسْخِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. كما أن قَوْله:﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾ لَيْسَ باستثناء مُتَّصِلٍ بِالْأَوَّلِ حَتَّى يكون مُخَالفًا لقَوْله:﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ بل هُوَ اسْتِثْنَاء مُنْقَطع، وَمَعْنَاهُ قل لَا أسالكم عَلَيْهِ أجرًا، وَتمّ الْكَلَام. ثم قال:﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ﴾ لَكِن صلوا قَرَابَتي بالاستجابة لي أَو تكفوا أذاكم عني[3].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٢١/ ٥٢٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٧٥، والكشف والبيان الثعلبي ٨/ ٣١٠، والوسيط للواحدي ٤/ ٥١، وروح المعاني للألوسي١٣/ ٣١.

(٢) هذا الحديث لم أعثر عليه إلا في كتب التفسير كالكشف والبيان للثعلبي ٨/ ٣١٤، والكشاف للزمخشري ٤/ ٢٢٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٢٣.

(٣) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٨/ ٣١٣، وتفسير القرآن للسمعاني ٥/ ٧٣ وما بعدها، ومعالم التنزيل للبغوي ٤/ ١٤٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٢٣.

هذا فضلًا عن أنه لا يجوز من النبي(ﷺ) أن يطلب أجرًا أيًّا كان على تبليغ الرسالة، ومودة قرابة الرسول ﷺ- ولو أنها فرض على كل مؤمن- فإنها تعتبر أجرًا على التبليغ، وسياق القرآن الكريم ينافي ذلك في سائر مواضعه؛ لأن الأنبياء لم يطلبوه وهو أولى بذلك؛ لأنه أفضل؛ ولأنه صرح بنفيه في قوله:﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[ص:٨٦] وقوله:﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[سبأ:٤٧] فانقطاع الاستثناء أقطع لتوهم المنافاة بين هذه الآية والآيات المتضمنة لنفي سؤال الأجر مطلقًا؛ ولأن التبليغ واجب عليه لقوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة:٦٧] وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق به؛ ولأن متاع الدنيا أخس الأشياء فكيف يطلب في مقابلة تبليغ الوحى الإلهي الذي هو أعز الأشياء؛ ولأن طلب الأجر يوهم التهمة، فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئًا ويسألون عليه ما يكون فيه نفع لأولادهم وقراباتهم، وذلك ينافى القطع بصحة النبوة [(١)].

ومما يؤكد انقطاع الاستثناء أن الرأي الصحيح أن سورة الشورى من السور المكية الخالصة بكاملها،وهذه الآية مكية باتفاق أهل السنة، وأما رواية أنها نزلت بالمدينة فيمن فاخر من الأنصار، فإسناده ضعيف لا يعتمد على دليل صحيح، وليس يظهر بين الآية وتلك الرواية في هذا السياق مناسبة، فالْآيَة مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَكُنْ للسيدة فَاطِمَةَ- رضي الله عنها- حين نزول الآية أَوْلَادٌ بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّهَا لَمْ تَتَزَوَّجْ بالإمام عَلِيٍّ إِلَّا بَعْدَ بَدْرٍ مِنَ السَّنَةِ الثانية من الهجرة، والإمام الحسن ولد في السنة الثالثة من الهجرة، والإمام الحسين في السنة الرابعة فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجودهما بسنين متعددة، فكيف يفسر النبيّ(ﷺ) الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق.

---

(١) ينظر: روح البيان لإسماعيل حقي ٨/ ٣١١، وروح المعاني للألوسي ١٣/ ٣١، وأوضح التفاسير لمحمد عبد اللطيف الخطيب صـ ٥٩٤، وتفسير حدائق الروح والريحان ٢٦/ ١٠٢.

وما روي عن ابْن أَبِي حَاتِمٍ أنه قال: حَدَّثَنَا علي بن الحسين، حَدَّثَنَا رَجُلٌ سَمَّاهُ، حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ الْأَشْقَرُ، عَنْ قَيْسٍ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ:﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرَ اللهُ بِمَوَدَّتِهِمْ؟ قَالَ: فَاطِمَةُ وَوَلَدُهَا، فهَذَا أغرب الْأَقَاوِيل وأضعفها، فإِسْنَادُه ضَعِيفٌ، فِيهِ مُبْهَمٌ لَا يُعْرَفُ، عَنْ شَيْخٍ شِيعِيٍّ مُتَخَرّق، وَهُوَ حُسَيْنٌ الْأَشْقَرُ، وَلَا يُقْبَلُ خَبَرُهُ فِي هَذَا الْمَحَلِّ، والحق تفسير الآية بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ كَمَا رَوَاهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ، وَلَا تُنْكَرُ الْوَصَاةُ بِأَهْلِ الْبَيْتِ، وَالْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْتِرَامِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ، فَإِنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ طَاهِرَةٍ، مِنْ أَشْرَفِ بَيْتٍ وُجِدَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَخْرًا وَحَسَبًا وَنَسَبًا[1]، وقد ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ(ﷺ) قَالَ:[تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي][2].

ومما يؤكد انقطاع الاستثناء-أيضًا- السياق اللغوي(القبلي والنصي والبعدي) فالخطاب من أول السورة مع مشركي قريش، حيث أنكر الله عليهم شركهم، وساق الأدلة على بطلانه، ووبخهم على إصرارهم على هذا مع كل هذه النعم التي أنعم بها عليهم، ثم صور أحوالهم السيئة يوم القيامة فالْخِطَابُ" لِقُرَيْشٍ خَاصَّةً، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِكْرِمَةُ وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُمْ... وَهَذَا أَشْبَهُ بِالْآيَةِ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ"[3].

والسياق النصي للآية يؤكد انقطاع الاستثناء لدخول(في) في قوله:﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال: الأمر بمودّة قرابة رسول الله(ﷺ)، لم يكن لدخول(في) في هذا الموضع وجه معروف، ولكان التنزيل: إلا المودة للقربى

---

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني ٥/ ٧٤، وتفسير القرآن لابن كثير ٧/ ١٨٤، وروح المعاني ١٣/ ٣١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٨/ ٣٦٤، وتفسير القرآن لمحمد رشيد رضا ١٢/ ١٧٤.

(٢)أخرجه الترمذي في جامعه الكبير٦/١٣١-ح/ ٣٧٨٦(بَابُ: مَنَاقِبِ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ).

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٢٤.

أو لذوي القربى. كما أن الألف واللام في المودّة أدخلتا بدلًا من الإضافة، فجميع ما في القرآن من التوصية بحقوق ذوي قربى النبيّ(ﷺ) وذوي قربى الإنسان إنما قيل فيها(ذوي القربى) كما قال:﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الأنفال:٤١]، وقال:﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الحشر:٧] وقوله:﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[الإسراء:٢٦] وهكذا في غير موضع. ولم يقل:(في القربى) فلما ذكر هنا المصدر دون الاسم، دل على أنه لم يرد(ذوي القربى)؛ لأنه لا يقول من طلب المودة لغيره: أسألك المودة في فلان، ولا في قربى فلان، ولكن أسألك المودة لفلان والمحبة لفلان، فلما قال: (المودة في القربى) علم أنه ليس المراد لذوي القربى[١].

وكذلك السياق البعدي يدل علي أن الخطاب مع مشركي قريش وهو قوله تعالي:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾ ففي الآية تساؤل استنكاري عما إذا كان الكفار يقولون إن النبي(ﷺ) يفتري على الله الكذب، وردّ مفحم على ذلك بأن الله قادر لو كان قولهم صحيحًا على أن يختم على قلب النبي(ﷺ) ويطمس على بصيرته ويمحو الباطل ويحق الحق، فهو العليم بما في الصدور، فالآية غير منقطعة عن سياق السورة، وإنها تحكي زعمًا للكفار وترد عليه، فاتصالها ملموح بصورة خاصة بما قبلها، كما يلاحظ أن أسلوب هذه الآية ومضمونها مما تكرر في آيات مكية، وأن الصورة التي انطوت عليها هي من صور العهد المكي[٢].

٤- قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ٢٧﴾.[الزخرف].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٢١/٥٣٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ٨/٣٦٥.

(٢) ينظر: التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة ٤/ ٤٦٢.

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: الآيات السابقة لهذه الآية تعالج مسألة حب التقليد الأعمى، فجاء الإسلام ينعى على كفار مكة تقليدهم لآبائهم في عبادة الأصنام والأوثان، حيث فعلوا كل هذا و﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ٢٠﴾ وحجتهم:﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢﴾، ثم أخذ السياق القرآني في إبطال التقليد الأعمى للآباء بإعطاء الكفار أنموذجًا وهو إبراهيم الخليل إمام الحنفاء وأبي الأنبياء "وأشرف آباء العرب وأنه ترك دين الآباء لأجل الدليل، فلو كانوا مقلدين لآبائهم وجب أن يتبعوه في الاعتماد على الدليل لا على مجرد التقليد"[1]. فالكلام تمهيد لما فيه أهل مكة من العناد والابتعاد عن تدبر الآيات قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ٢٦﴾ ثُمَّ اسْتَثْنَى خَالِقَه مِنَ الْبَرَاءَةِ فَقَال:﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله:﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ استثناء من قوله:﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ واختلف في الاستثناء اتصالًا وانقطاعًا، فذهب بعض العلماء إلي أن الاستثناء في الآية متصل، وَالْمَعْنَى: أَنَا أَتَبَرَّأُ مِن كل مَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا مِنَ الذي فطرني وهو الله(ﷻ) فأنا لا أتبرأ منه، فعن قتادة في الآية، قال:" كايدهم، كانوا يقولون: إن الله ربنا- يعني مع عبادة الأوثان-﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فلم يبرأ من ربه"[2]. وعلى هذا يكون الاستثناء على حقيقته من الاتصال، على أن(ما) تعمّ أولي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٦/ ٨٩.

(٢) جامع البيان للطبري ٢١/ ٥٨٩، وينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٧٦.

يعبدون الله والأصنام والأوثان[١]، أي أنهم كانوا يشركون أصنامهم أربابًا مع الله، فكأن إبراهيم قال لهم: أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الفاطر.

وذهب كثير من العلماء إلي أن الاستثناء في الآية منقطع من غير الجنس، وتكون (إلا) بمعنى لكن، ويكون المعنى: أنا أتبرأ مما تعبدون لكن الذي فطرني﴿فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ أي سيرشدني لدينه ويوفقني لطاعته، قاله ابن عباس[٢]. وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله لا قليلًا ولا كثيرًا.

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح انقطاع الاستثناء؛ لأن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون، فلا يصح أن يستثنى منهم، لما فيه من إيهام التسوية والجمع بين الله وبين غيره، كما أن المعني علي الانقطاع يؤيده السياق؛ لأن المعنى علي اتصال الاستثناء أن إبراهيم(ﷺ) يبرأ من كل ما يعبدون إلا الذي فطره، أما المعنى علي انقطاع الاستثناء أن الذي فطر إبراهيم(ﷺ) وهو الله سيهديه، وهذا المعنى جاء في آية أخرى:﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾.

وقد رجح كثير من العلماء انقطاع الاستثناء في هذا الموضع، يقول أبو حيان:" وَالظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ:(إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ؛ إِذْ كَانُوا لَا يَعْبُدُونَ الله مَعَ أَصْنَامِهِمْ "[٣]. بل إن بعض العلماء لم يذكروا غيره [٤].

---

(١) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني ٢/ ١٠٦٢، وتفسير حدائق الروح والريحان لمحمد الأمين الهرري ٢٣٥/٢٦، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ١٢٤/١٣.

(٢) ينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٠/ ٣٠، ومدارك التنزيل للنسفي ٣/ ٢٧٠، وفتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي ٦/ ٢١٥.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٩/ ٣٦٧، وينظر: إعراب القرآن لمحيي الدين درويش ٩/ ٨٠.

(٤) ينظر: فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي ٦/ ٢١٥.

وهناك عدة آيات توضح أنهم كانوا يعبدون الأصنام فقط، قال تعالى:﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١﴾ وقال:﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ٨٤ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ٨٥ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٨٧ ... فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ٩٣ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ٩٤ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ٩٨ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ٩٩﴾، وغير ذلك من الآيات.

وقد رد الماتريدي علي من زعم اتصال الاستثناء وأنهم كانوا يعبدون الله مع آلهتهم، فقال:" الإشكال أنه لم يظهر أن في قومه من يعبد الله- تعالى- وهو الذي فطره وخلقه، فما معنى الاستثناء، فيقال: إنه لم يكن في قومه من يعبد الذي فطره، فكان في آبائهم وأوائلهم من يعبد الذي فطرهم، فيرجع استثناؤه إلى ذلك، والله أعلم. ويحتمل أنه إنما استثنى الذي فطره على طريق الاحتياط؛ لاحتمال أن يكون فيهم من يعبد الله- تعالى- ولا وقوف له على ذلك فيصير متبرئًا من ذلك لو تبرأ ممن يعبدون جميعًا، والله أعلم. ويحتمل أن يكون استثنى الذي فطره؛ لأنهم عبدوا هذه الأصنام والأوثان دون الله رجاء أن تشفع لهم فتقربهم إلى الله زلفى؛ لقولهم:﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣]، وقولهم:﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فرجع استثناؤه إلى حقيقة الذي قصدوا بالعبادة، وهو الذي فطرهم"[(١)]. أو ربما كان المراد أن عبادته سبحانه مع الشرك في حكم العدم، فكأنهم لم يعبدوه.

ومما يدل علي أن الراجح كون الاستثناء منقطعًا وأنهم لم يعبدوا الله مع أصنامهم التنظير في الآية بين قوم ابراهيم وكفار مكة، إذ المراد بالآيات تشبيه حال كفار مكة بقوم إبراهيم(عليه السلام)، خاصة وإن كفار العرب من ذرّيّة إبراهيم(عليه السلام) وكفار مكة عبدوا

(١) تأويلات أهل السنة للماتريدي ٩/ ١٦٠.

الأصنام ولم يعبدوا الله،ويدل على هذا ما جاء في سبب نزول سورة الكافرون حيث إنها نَزَلَتْ فِي رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فَاتَّبِعْ دِينَنَا وَنَتَّبِعُ دِينَكَ وَنُشْرِكُكَ فِي أَمْرِنَا كُلِّهِ، تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةً وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً، فَإِنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ خَيْرًا كُنَّا قَدْ شَرَكْنَاكَ فِيهِ وَأَخَذْنَا حَظَّنَا مِنْهُ،وَإِنْ كَانَ الَّذِي بِأَيْدِينَا خَيْرًا كُنْتَ قَدْ شَرَكْتَنَا فِي أَمْرِنَا وَأَخَذْتَ بِحَظِّكَ مِنْهُ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ أُشْرِكَ بِهِ غَيْرَهُ، ونزلت السورة [١].

٥- قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِين ٥١ فِي جَنَّٰت وَعُيُون ٥٢... لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ٥٦﴾.[الدخان].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: بعد أن أخبر الله﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ٤٠﴾-كما مر في تحليل الآية(٤٢) من السورة- أخذ في بيان حَالَ الْأَشْقِيَاءِ(الكفار) وجزاءهم، وحَال السُّعَدَاءِ(المؤمنون) وجزاءهم، فقال في الكفار ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ٤٦...﴾ ثم أعقب بذكر حال المتقين في الجنة﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِين ٥١ فِي جَنَّٰت وَعُيُون ٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُس وَإِسْتَبْرَق مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِين ٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ٥٥﴾ ثم أخبر بأنهم﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ هو تعليل لقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي أنهم في أمان من أن يزعجهم عن هذا النعيم الذي هم فيه أي شيء ولهذا استثني فقال:﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ٥٦﴾" قال ابن عباس: يريد: التي كانت في الدنيا، وقال مقاتل: يعني: المرة الأولى التي كانت في الدنيا"[٢].

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف في الاستثناء الواقع في قوله تعالي:﴿ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ علي ثلاثة أقوال-القول

---

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ١٠/ ٣١٥، ومعالم التنزيل للبغوي ٥/ ٣١٧.

(٢) التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٠/ ١٢٦.

الأول: أن الاستثناء متصلٌ وتأَوَّلوه: بأن الْمُؤْمِنَ عِنْدَ مَوْتِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَنْزِلَتِهِ فِي الْجَنَّةِ لِمُعَايَنَتِهِ مَا يُعْطَاهُ مِنْهَا، أو لِما يَتَيَقَّنُه مِنْ نعيمِها، والله يقول:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾[آل عمران] "أفما ترى أنهم عندنا موتى وهم في الجنة متّصلون بأسبابها؟ فكيف لا يجوز أن يستثنى من مكثهم فيها الموتة الأولى؟ "[(١)].

القول الثاني: أن(إلا) بمعنى بَعْد، واختاره الطبريُّ فقال:" وإنما جاز أن توضع(إلا) في موضع(بعد) لتقارب معنييهما... ومن شأن العرب أن تضع الكلمة مكان غيرها إذا تقارب معنياهما... فكذلك قوله:﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وضعت (إلا) في موضع(بعد) لما نصف من تقارب معنى(إلا) و(بعد) في هذا الموضع"[(٢)].

القول الثالث: أن الاستثناء منقطعٌ، وكان بعض أهل العربية والنحويين يوجهون إِلَّا هنا بمعنى(سوى) أي سوى الموتة الأولى، ويمثله بقوله تعالى:﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[آلنساء:٢٢] بمعنى: سوى ما قد فعل آباؤكم، يعني أن الاستثناء منقطع، وهذا– أيضًا– قول الفراء، والزجاج[(٣)]. والكوفيون يقدرون(إلا) في الاستثناء المنقطع بـ(سوى)، والبصريون يقدرونه بـ(لكن)، فالتقدير على مذهب سيبويه: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا [(٤)].

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صـ٥٤، وينظر: التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٠/ ١٢٧.

(٢) جامع البيان للطبري ٢٢/ ٥٤.

(٣) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٤، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٤٢٨، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١٠/ ٦٧٦١.

(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١٠/٦٧٦١، والوسيط للواحدي ٤/٩٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ١٥٥، والدر المصون للسمين الحلبي ٩/ ٦٣١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٨/ ٤٢٤، والتفسير المنير، د/ وهبة الزحيلي ٢٥/ ٢٣٩.

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح كون الاستثناء منقطعًا؛ وأميل أكثر إلي تأويله بـ(لكن)؛ لأن في كل قول من الأقوال الأخرى اعتراض، فمن قال(إلا) هاهنا بمعنى بعد، فقد ضعفه كثير من العلماء، كما أن هذا القول يدفعه قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ فالضمير يعود إلى الجنة في الآخرة، وأيضًا هذا القول نازعه الجمهور؛ لأن مجيء إلا بمعنى بعد لم يثبت [١].

وقول من قال الاستثناء متصل هذا القول أيضًا غير سديد؛ لأن الموتة الماضية قد انقضت فلا يصح الاستثناء منها، وهذا القول مدفوع بقوله:﴿فِيهَا﴾، يقول ابن جزى: " ولولا قوله:(فيها) لكان متصلًا لعموم لفظ الموت"[٢].

وقد شرط العلماء في الاستثناء اتحاد زمان المخرج والمخرج منه، فَإِذَا قُلْتَ: قَامَ الْقَوْمُ إِلَّا زَيْدًا. فَمَعْنَاهُ إِلَّا زَيْدًا فَإِنَّهُ مَا قَامَ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى إِلَّا زَيْدًا فَإِنَّهُ مَا يَقُومُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَكَذَلِكَ سَأَضْرِبُ الْقَوْمَ إِلَّا زَيْدًا، مَعْنَاهُ إِلَّا زَيْدًا فَإِنِّي لَا أَضْرِبُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى إِلَّا زَيْدًا فَإِنِّي ضَرَبْتُهُ أَمْسِ إِلَّا إن كَانَ الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا فَإِنَّهُ يَسُوغُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أَيْ لَكِنِ الْمَوْتَةَ الْأُولَى فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُمْ ذَاقُوهَا[٣].

أما من قال الاستثناء متصل وضمير﴿فِيهَا﴾ للآخرة والموت أول أحوالها، فقد رد عليه الألوسي بقوله:" ولا يخفى ما فيه من التفكيك مع ارتكاب التجوز [٤].

---

(١) ينظر: غرائب التفسير للكرماني ٢/ ١٠٨٠، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/ ٢٦٩، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٧/ ٣٣٦، وروح المعاني للألوسي ١٣/ ١٣٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٢/ ٢٦٩.

(٣) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٤/ ٦٤٥.

(٤) روح المعاني للألوسي ١٣/ ١٣٤.

وقول من قال إلا بمعني سوي فقد ضعفه بعض العلماء، وأنه ليس له وجه مفهوم، ويدفعه المعنى؛ لأن(إلا) تكون ناقصة أبدًا، وإذا جعلت بمعنى سوى تكون زائدة، فيؤدي المعنى إلى أنهم يذوقون من جنس الموتة الأولى، ولذا قال مكي القيسي:" طُعِنَ في هذا القول؛ لأن القائل لو قال: لا أذوق اليوم الطعام إلا الطعام الذي ذقته قبل اليوم، بمعنى سوى، لجاز أن يريد أن عنده طعامًا من نوع الطعام الذي ذاق بالأمس، وإنه ذائقه اليوم دون سائر الأطعمة، فيحتمل معنى الآية إذا كانت(إلا) بمعنى(سوى) أن يكون ثم موت من جنس الموت الأول يحل بهم، وهذا محال"[(١)].

فالراجح أن الاستثناء منقطعًا بمعني لكن؛ إذ هو اختيار كثير من العلماء [(٢)]، كما أن السياق اللغوي في الآية يدل عليه، فالموتة أخص من الموت؛ لأن الموتة للوحدة والموت للجنس، فيكون بعضًا من جنس الموت، وهو فرد واحد، ونفي الواحدة أبلغ من نفي الجنس، فكانت أقوى وأنفى في نفي الموت عن أنفسهم، كأنه قال: لا يذوقون فيها شيئًا من الموت يعني: أقل ما ينطلق عليه اسم الموت، وهذا أليق به الاستثناء المنقطع؛ لأنه يقطع وينفي الصلة بين المستثنى والمستثنى منه، أي: لا يذوقون الموت في الجنة لكن الموتة الأولى قد ذاقوها قبل دخول الجنة[(٣)]. ويعضد هذا قِرَاءَة ابْن مَسْعُود{لَا يذقون فِيهَا طعم الْمَوْت}[(٤)]. وَكل ذَلِكَ للتَّنْبِيهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ الله بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخُلُودِ السَّرْمَدِيِّ، فالاسْتِثْنَاءُ هنا يُؤَكِّدُ النَّفْيَ.

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي القيسي ١٠/ ٦٧٦١، وينظر: جامع البيان للطبري ٢٢/ ٥٣، وغرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني ٢/ ١٠٨٠.

(٢) ينظر: التصاريف لتفسير القرآن ليحيى بن سلام صـ٣٠٧، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٧، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٠٩/٩،والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٥/ ٢٠٣.

(٣) ينظر: روح البيان لإسماعيل حقي ٨/ ٤٣١، وتفسير حدائق الروح والريحان ٢٦/ ٣٩٧.

(٤) لم أعثر علي هذه القراءة إلا في روح المعاني للألوسي ١٣٤/١٣.

ومما يدل- أيضًا- علي انتفاء الموت عنهم تمامًا السياق اللغوي(القبلي والبعدي)، فقوله تعالى:﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ٥٦﴾ هو تعليل لقوله تعالى:﴿ءَامِنِينَ﴾ أي أنهم في أمان من أن يزعجهم عن هذا النعيم الذي هم فيه أيّ خاطر يخطر لهم من انقطاع هذا النعيم بالموت، فهم لا يَذُوقُونَه أبدًا، فإنها حياة خالدة، ونعيم خالد فلا يتحولون أبدًا عن هذا النعيم إلى ما يقابله من عذاب الجحيم الذي يصلاه أهل النار، فقد وقاهم الله هذا العذاب(١).

والأدلة من السنة على أبدية الحياة في الجنة كثيرة، منها ما روي عَن النَّبِي(ﷺ) في أَهلِ الْجَنَّة:[يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:{وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}](٢). والنوم أخو الموت، وروى عَن جَابر(ﷺ) قَالَ:[سُئِلَ نَبِيُّ اللهِ(ﷺ)، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَنَامُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ(ﷺ): النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ](٣).

٦- قوله تعالى:﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾.[القمر].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تحدثت سورة القمر من أولها عن قيام الساعة وإعراض الكفار عن الله وعنها مع وجود الآيات الدالة علي ذلك﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ثم هددت الكفار بضرب نماذج من الأمم السابقة المكذبة- قوم نوح وعاد وثَمُود- وما ترتب علي تكذيبهم من جزاء، إلي أن جاءت الآيات عن تكذيب قوم لوط

---

(١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٣/ ٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤// ٢١٨٢-ح/ ٢٨٣٧(بَابٌ فِي دَوَامِ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ١/٢٨٢-ح/٩١٩(باب: من اسمه أحمد).

وجزاءهم﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ يعني ريحا تحصبهم أي ترميهم بالحجارة، ثُمَّ اسْتَثْنَى فقال:﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ﴾ يعني" لوط وابنتيه"[1]، حيث لم يؤمن به سواهما، وقيل: هم أهل بيته الذين نجوا من العذاب وكانوا ثلاثة عشر، وقيل: هم بناته ومن آمن به من أزواجهن[2]. وقوله:﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤﴾ أي في وقت السحر.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله تعالي:﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ﴾ مستثنى من قوله تعالي:﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ والضمير في عليهم يعود على قومه، وفي الاستثناء وجهان: أحدهما: أنه متصل ويكون المعنى: أنه أرسل الحاصب على الجميع إلا أهله، فإنه لم يرسلْ عليهم. والثاني: أنه منقطع؛ لأنه مستثنى من الضمير في عليهم وهو للمكذبين من قوم لوط ولا يدخل فيهم آل لوط؛ لأن المراد به من تبعه على دينه، ويكون المعني لكن الحاصِب لم يُرْسَل على آلِ لوطٍ؛ لأن هؤلاء ليسوا مشاركين لهم في الوصف، فكأنهم جنس آخر، فهو منفصل، ويوضح هذا ما روى أن الزمخشري وغيره ذهب إلي أن الاستثناء يحتمل الاتصال، والمراد أنه أرسل على جميعهم العذاب فأهلك الكافرون، وبقي آل لوط، ويحتمل الانفصال، والمراد أنه أرسل على من كذبه من قومه حالة انفصال المؤمنين عنهم، وَعَلَى هذا الْوَجْهِ يَكُونُ الْحَاصِبُ لَمْ يُرْسَلْ عَلَى آلِ لُوطٍ [3].

الرأي الراجح: ما نسب إلي الزمخشري من أنه ذهب إلي أن الاستثناء يحتمل الاتصال، والمراد أنه أرسل على جميعهم العذاب فأهلك الكافرون، وبقي آل لوط، ويحتمل الانقطاع، والمراد أنه أرسل على هؤلاء حالة انفصال المؤمنين عنهم أراه فيه

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٢٠١، وينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/ ١٤٣.

(٢) ينظر: روح البيان لإسماعيل حقي ٩/ ٢٨٠.

(٣) ينظر: التبيان للعكبري ٢/ ١١٩٥، والدر المصون ١٠/ ١٤٣، وتفسير ابن عرفة ٤/ ١١٥.

نظر؛ لأن الذي يظهر أن لوط ومن آمن به نجوا بسحر، نجاهم الله(ﷻ) بالسحر قبل أن يحل هذا العذاب على قوم لوط في الصبح الذي وقت لحلول العذاب، أي إنه لم يرسل عليهم الحاصب، فالاستثناء هنا منقطع لا يحتاج إلي مزيد فكر؛ لدلالة النصوص علي ذلك فقَوْلُهُ تَعَالَى:﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَر﴾ " كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ لِبَيَانِ وَقْتِ الْإِنْجَاءِ، أَوْ لِبَيَانِ كَيْفِيَّةِ الِاسْتِثْنَاءِ؛ لِأَنَّ آلَ لُوطٍ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا فِيهِمْ وَلَا يُصِيبُهُمُ الْحَاصِبُ كَمَا فِي عَادٍ كَانَتِ الرِّيحُ تَقْلَعُ الْكَافِرَ وَلَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْهَا مَكْرُوهٌ... فَقَالَ:﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَر﴾ أَيْ أَمَرْنَاهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْقَرْيَةِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَالسَّحَرُ قُبَيْلَ الصُّبْحِ، وَقِيلَ هو السدس الأخير من الليل"(١).

أما وقت حلول العذاب بقوم لوط فقد وقته الله تعالي وأشار إليه في العديد من الآيات منها قوله تعالي:﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَاب مُّسْتَقِرّ ٣٨﴾[القمر] أي: أول النهار، وقوله تعالى:﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيب ٨١﴾[هود]﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوع مُّصْبِحِينَ ٦٦﴾[الحجر] وقوله:﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣﴾[الحجر] أي وقت شروق الشمس.

ومما يدل علي ذلك أيضًا السياق البعدي وهو قوله تعالي:﴿نِّعْمَة مِّنْ عِندِنَاۚ﴾ أي كان انجاؤهم إنعامًا منا عليهم ورحمة منا بهم، ومن مقتضيات النعمة والرحمة ألا يصبهم العذاب أصلًا ولا يكونوا بداخله ولا يرونه بأعينهم، إذ كان المشهد عظيمًا مهولًا مفزعًا، ولذا امروا بعدم الالتفات قال تعالى:﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْع مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَد وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥﴾[الحجر] فقد روى أن جبريل(عليه السلام) "حَمَلَ مَدَائِنَهُمْ حَتَّى وَصَلَ بِهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ وَأَرْسَلَهَا، وَأُتْبِعَتْ

(١) مفاتيح الغيب: للرازي ٢٩/ ٣١٤.

بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ... خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ لُوطٌ وَبَنَاتٌ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ سَالِمًا لَمْ يمسَسْه سُوءٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ٣٥﴾"(١).

ومما يوكد علي ما سبق أيضًا قوله تعالي:﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨﴾ أي إنهم أرسلوا إلي المجرمين فقط، وهذا يدل علي أن المؤمنين من آل لوط لم يصبهم العذاب أصلًا، وكذا قوله:﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[هود:٨٣] أي معلمة بعلامات، وقيل: مكتوب علي كل حجر اسم صاحبه، فبالتالي لم يصبهم العذاب أصلًا، ولذا قال تعالي:﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ وقال:﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾[الْعَنْكَبُوت:٣٣]، فعدم الخوف والحزن يدلان علي عدم دخولهم في العذاب أصلًا.

٧- قوله تعالى﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَۖ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾[الحديد].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تتحدث الآيات السابقة لهذه الآية عن إرسال الله لرسله مؤيدين بالبينات وأنزل معهم الكتب- التي هي الشرائع- والميزان الذي هو آلة العدل كل هذا ليقوم الناس بالقسط﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ...﴾، ثم أخذ السياق القرآني في تفصيل بعض ما أجمل من الرسل فبدأ بنوح وإبراهيم- عليهما السلام- وانتهى بعيسى(عليه السلام) وصولًا إلى بعثة سيد الرسل وخاتمهم فقال تعالي:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٦ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَۖ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةًۚ﴾ ثم استأنف فقال:﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ والابتداع أن

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٤٤٤.

تفعل شيئًا لم يفعل قبلك، ولم يأمرك الله به، وهي هنا غلوهم في العبادة بالانقطاع إلى الخلوات، وتجنب النساء والشهوات وغير ذلك﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي فرضناها عليهم أو ما ابتدعوها﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِير مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ٢٧﴾ خارجون عن حد الاتباع والطاعة.

وسبب ابتداعهم الرهبانية على ما قال المفسرون أن في الفترة التي كانت بين عيسى ومُحَمَّد- عليهما الصلاة والسلام- كان من بني إسرائيل ملوك غيّروا التوراة والإنجيل، وبقي منهم أناس مؤمنون بعيسى(عليه السلام) ويعملون بما في الكتب، فقاتل هَؤُلَاءِ الملوك القوم الذين بقوا على دينهم لإبائهم اتباعهم والعود إلى مذهبهم، وقتلوا منهم الكثير ولم يبق إلا نفر قليل، فخرجوا من بينهم إلى البراري والجبال متبتلين، وابتدعوا الرهبانية؛ رجاء أن يتخلصوا منهم، فذلك﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾.

وقوله:﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ أي أنهم كَفَرُوا بِدِينِ عِيسَى وقالوا بالتثليث والاتحاد وَدَخَلُوا فِي دِينِ مُلُوكِهِمْ وَتَرَكُوا التَّزَهُّبَ، وفيهم ثلاثة أقوال: أحدها: أن هؤلاء قوم كفروا بدين عيسى من هؤلاء الذين أحدثوا الرهبانية ودخلوا في دين ملوكهم وتركوا الترهب، وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمدًا(ﷺ) فآمنوا به، فهذا قوله:﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْۖ وَكَثِير مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهو قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل ورواية عن ابن عباس. القول الثاني: أنهم الذين أدركوا محمدًا (ﷺ) ولم يؤمنوا به. القول الثالث: أن الصالحين من قوم عيسى ابتدعوا الرهبانية وانقرض على ذلك طائفة منهم، وخلف بعدهم قوم اقتدوا بهم ولم يكونوا على منهاجهم فهم الذين لم يرعوها حق رعايتها وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء[1].

---

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ٢٣/ ٢٠٢ وما بعدها، وتأويلات أهل السنة للماتريدي ٩/ ٥٣٩، والكشف والبيان للثعلبي ٩/ ٢٤٧، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ٢٧٠، وفتح القدير ٥/ ٢١٥.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: قوله:﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فيه وجهان، الأول: أنه استثناء متصل ممَّا هو مفعول من أجلِه راجع إلى قوله تعالى:﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا﴾، ويكون﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بدلاً من الهاء والألف في كتبناها، ثم في معنى الكلام قولان: أحدهما: ما كتبناها عليهم بعد دخولهم فيها تطوعًا إلا ابتغاء رضوان الله. قاله الحسن. ثانيهما: ما كَتَبْناها عليهم لشيءٍ من الأشياءِ إلاَّ ابتغاءِ مَرْضاتِ اللَّهِ، فيكون(كتب) بمعنى قضى، فصار المعنى: كَتَبْناها عليهم ابتغاءَ مرضاة اللهِ، وهذا قولُ مجاهد وابن قتيبة. والوجه الثاني: أنه منقطعٌ، وإلا هنا ملغاة بمعنى لكن، ويكون قوله:﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ منصوب بفعل مضمر يدل عليه ما بعده تقديره: وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها،أي جاءوا بها من قِبل أنفسهم، فيكون المعني: ما كتبناها نحن عليهم رأسًا ولكن ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاءَ مرضاة اللهِ ولم نفرضها عَلَيْهِم. وعلي هذا فالاستثناء يرجع إلى قوله:﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ وإلى هذا ذهبَ قتادة وزيد بن أسلم والجمهور[1]. والفرق بين الوجهين أن الأول يقتضى أنهم أمروا بها ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها والثاني يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلًا، ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله.

الرأي الراجح: الذي أميل إليه وكونه أولى التفسيرين بالحق كون الاستثناء منقطعًا كما عليه أكثر العلماء[2]؛ لأن ابتداع الرهبانية والمغالاة في الدين قد نهى الله عنه؛ لأنه قد يؤدي إلي خلاف المقصود، قال تعالي:﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا

---

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج ١٣٠/٥، ومشكل إعراب القرآن لمكي القيسي ٧٢٠/٢، والكشاف للزمخشري ٤٨٢/٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٢٣٨/٤، ومفاتيح الغيب للرازي ٤٧٤/٢٩، والدر المصون للسمين الحلبي ٢٥٧/١٠.

(٢) ينظر: الهداية لمكي القيسي ٧٣٣٥/١١، والكشاف للزمخشري ٤٨٢/٤، ومدارك التنزيل للنسفي ٤٤٣/٣، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٣٤٩/٢،وغرائب القرآن للنيسابوري ٢٦٢/٦.

تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾[النساء: ١٧١]. وقوله تعالي:﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾[المائدة]. وروي عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ(ﷺ) قَالَ:[خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ(ﷺ) فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَاهُ فَقَالَ: مَرَّ رجل بغار فيه شيء مِنْ مَاءٍ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ بِأَنْ يُقِيمَ فِي ذَلِكَ الْغَارِ، فَيَقُوتُهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَاءٍ وَيُصِيبُ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْبَقْلِ وَيَتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا. قَالَ: لَوْ أَنِّي أَتَيْتُ النَّبِيَّ(ﷺ) فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَإِنْ أَذِنَ لِي فَعَلْتُ وَإِلَّا لَمْ أَفْعَلْ... فَقَالَ النَّبِيُّ(ﷺ): لم أُبْعَثْ بِالْيَهُودِيَّةِ وَلَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَلَكِنِّي بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَمَقَامُ أَحَدِكُمْ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ سِتِّينَ سَنَةً][1]. وعن أنس أن رسول الله(ﷺ) قال:[لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليه، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ما ابتدعوها ما كتبناها عليهم. يعني الآية][2].

ومما يدل أيضًا علي أن أهل الكتاب هم الذين ابتدعوا الرهبانية وأن الله-تعالى- لم يكتبها عليهم ما جاءت به الآثار، حيث روي عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ(ﷺ): هَلْ تَدْرِي أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ ؟ قَالَ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَعْلَمُ النَّاسِ أَبْصَرُهُمْ بِالْحَقِّ إِذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ وَإِنْ كَانَ مُقَصِّرًا فِي الْعَمَلِ وَإِنْ كَانَ يَزْحَفُ عَلَى اسْتِهِ، هَلْ تَدْرِي مِنْ أَيْنَ اتَّخَذَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الرَّهْبَانِيَّةَ، ظَهَرَتْ عَلَيْهِمُ الْجَبَابِرَةُ بَعْدَ عِيسَى يَعْمَلُونَ بِمَعَاصِي اللهِ، فَغَضِبَ أَهْلُ الْإِيمَانِ، فَقَاتَلُوهُمْ، فَهُزِمَ أَهْلُ الْإِيمَانِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَقَالُوا إِنْ أَفْنَوْنَا فَلَمْ يَبْقَ لِلدِّينِ أَحَدٌ يَدْعُونَ إِلَيْهِ فَتَعَالَوْا نَفْتَرِقُ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللهُ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي وَعَدَنَا عِيسَى- يَعْنُونَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦/ ٦٢٣-ح/ ٢٢٢٩١(حديث أبي أمامة الباهلي).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٢٧٦-ح/ ٤٩٠٤(كِتَاب الْأَدَبِ، بَابٌ فِي الْحَسَدِ).

مُحَمَّدًا(ﷺ)- فَتَفَرَّقُوا فِي غِيرَانِ الْجِبَالِ وَأَحْدَثُوا رَهْبَانِيَّةً فَمِنْهُمْ مَنْ تَمَسَّكَ بِدِينِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ، ثم تلا هذه الآية﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ...﴾ الآية [1].

ومما يؤكد انقطاع الاستثناء قوله:﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ فالابتداع أن تفعل شيئًا لم يفعل قبلك، ولم يأمرك الله به، ومما يدل-كذلك- على انقطاع الاستثناء قراءة عبد الله بن مسعود: ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها [2].

ورجح ابن قيم الجوزية انقطاع الاستثناء من الناحية التركيبية فقال:" وفي نصب قوله:﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه. أحدها: أنه مفعول له، أي لم نكتبها عليها إلا ابتغاء رضوان الله، وهذا فاسد؛ فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه، كيف وقد أخبر أنهم هم الذين ابتدعوها فهي مبتدعة غير مكتوبة، وأيضًا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية، نحو: قمت إكراما، فالقائم هو المكرم، وفعل الفاعل المعلل هاهنا هو الكتابة، وابتغاء رضوان الله فعلهم لا فعل الله، فلا يصلح أن يكون علة لفعل لاختلاف الفاعل. وقيل: هو بدل من مفعول﴿كَتَبْنَٰهَا﴾ أي ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهو فاسد أيضًا؛ إذ ليس رضوان الله عين الرهبانية... فيكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل على الآخر... فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع، أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودل على هذا قوله﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾"[3].

٨- قوله تعالى:﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ

---

(١) ينظر: الكشف والبيان للثعلبي ٩/ ٢٤٨ وما بعدها، ومعالم التنزيل للبغوي٥/ ٣٤ وما بعدها، والجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٧/ ٢٦٥.

(٢) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي ٢/ ٣٤٩، ومعترك الأقران للسيوطي٢/ ٤٤٧.

(٣) تفسير القرآن الكريم لابن قيم الجوزية صـ ٥٣١ وما بعدها.

أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٤﴾.[الممتحنة].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: صدرت سورة الممتحنة بالتحذير الإنكاري من موالاة الكفار وتقريع من والاهم وتوثيق عرى الإخاء ورابطة الإيمان، فبدأت بهذا النهي﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ثم أكد ذَلِكَ النَّهْيِ والإنكار عَنْ مُوَالَاةِ الكفار بضَرَبَ مَثَل بقصة إبراهيم(ﷺ) والذين معه فأمرهم أن يتأسوا بهم في تبرؤهم من قومهم الكفار ومعاداتهم﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ ثم استثنى﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ أي فلا تتأسوا به في هذا، ولعل هذا لأنه كان عن موعدة وعدها إياه رجاء أن يسلم، والخُلْف لا يجوز خاصة عند الأنبياء، ولكنه لما تيقن أنه عدو لله تبرأ منه(١).

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف في الاستثناء في الآية، فقوله:﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ فيه أوجه: أحدها: أنه استثناء متصل من قوله:﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ولكن لا بد من تقدير حذف مضاف لِيَصِحَّ الِاسْتِثْنَاء، أَيْ: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي مَقَالَاتِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا قَوْلَهُ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ فَلَيْسَ فِيهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. وجزم باتصال الاستثناء علي هذا أبو حيان (٢).الثاني: أنه مستثنى من﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وجاز ذلك؛ لأن القول من جملة الأسوة؛ لأن الأسوة الاقتداء بالشخص في أقواله وأفعاله، فكأنه قيل: قَدْ كَانَتْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ فِي جَمِيعِ أحواله من قول وفعل إِلَّا قَوْله لِأَبِيهِ كيت وكيت. الثالث: قال ابن عطية: ويحتمل أن

(١) ينظر: التفسير المنير: د/ وهبة الزحيلي ٢٨/ ١٢٧ وما بعدها.
(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ١٠/١٥٥.

يكون استثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت أي لم تبق صلة إلا كذا. والمعنى: تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار،إلا أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له. الرابع: أنه استثناء منقطع، أَيْ: اقتدوا بإبراهيم في كل أقواله وأحواله لكن لا تقتدوا به في قوله لأبيه المشرك: لأستغفرن لك، بأن تستغفروا لآبائكم المشركين؛ لأن استغفار إبراهيم لأبيه المشرك كان عن موعدة وعدها إياه، أو أنه ظن أن أباه قد أسلم، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. أي إنه استثناء ليس من الأول، والمعنى عند مجاهد وقتادة وعطاء وغيرهم: أن الأسوة لكم في هذا الوجه، لا في هذا الآخر لأنه كان في علة ليست في نازلتكم،وهذا بناء من قائليه على أنَّ القول لم يندرج تحت قوله﴿أُسْوَةٌ﴾[1].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح كون الاستثناء في الآية منقطعًا؛ لأن من قال إنه استثناء متصل من قوله:﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ولكن لا بد من تقدير حذف مضاف ليصح الاستثناء، فإن مالا يحتاج إلي تأويل أولى مما يحتاج، يقول الألوسي:" واستظهر أبو حيان أن الاستثناء من مضاف لإبراهيم مقدر في نظم الآية... ولا يخفى أن التقدير خلاف الظاهر"[2]. ومن قال: إنه مستثنى من﴿أُسْوَةٌ حَسَنَة﴾ فإن الأسوة ووصفها بالحسنة يدل علي أنها ليست من جنس المستثنى منه كما سيأتي.

ومن قال: إنه مستثنى من التبري فلا داعي لتخصيصها بالتبري فقط، فَالتَّأَسِّي هُنَا جاء شاملًا لثلاثة أمور: أَوَّلًا: التَّبَرُّؤُ مِنْهُمْ وَمِمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. ثَانِيًا: الْكُفْرُ بِهِمْ، أي بما آمنتم به من الأوثان، ثَالِثًا: إِبْدَاءُ الْعَدَاوَةِ والْمُعَامَلَةُ بِالسُّوءِ وَالِاعْتِدَاءِ، وَالْبَغْضَاءِ أَبَدًا هي نَفْرَةُ النَّفْسِ وَالْكَرَاهِيَةُ وَإِعْلَانُ ذلك وَإِظْهَارُه أَبَدًا إِلَى الْغَايَةِ الْمَذْكُورَةِ، وهى حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي الْقَطِيعَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِهِمْ.

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز ٥/ ٢٩٥، والبحر المحيط ١٠/ ١٥٥، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٧/١٩، والسراج المنير للخطيب الشربيني ٢٦٣/٤، وفتح القدير ٥/ ٢٥٣.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٤/ ٢٦٥.

ومما يدل على هذا السياق القبلي للآية وهو بداية سورة الممتحنة حين نهي الله عن اتخاذ الكفار أولياء وأحبة فقال:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ وما رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَةُ التي معنا عَزَمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إظْهَارِ عَدَاوَاتِ أَقْرِبَائِهِمُ الْكُفَّارِ، وَلَحِقَهُمْ هَمٌّ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَتَوَادُّوا، فَنَزَلَ:{عَسَى اللَّهُ} الْآيَةَ، مُؤْنِسَةً وَمُرْجِئَةً، فَأَسْلَمَ الْجَمِيعُ عَامَ الْفَتْحِ وَصَارُوا إخْوَانًا [(١)].

فالاستثناء يترجح أنه منقطع كما ذهب إليه كثير من العلماء[(٢)]؛ لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه ليس من جنس الكلام السابق الذي تبرأ فيه هو ومن معه مما عليه أقوامهم الكافرون، يقول صاحب التحرير والتنوير:" وَالِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ إِذْ لَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِم: إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ إِلَخْ، فَإِنَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ رِفْقٌ بِأَبِيهِ وَهُوَ يُغَايِرُ التَّبَرُّؤَ مِنْهُ، فَكَانَ الِاسْتِثْنَاءُ فِي مَعْنَى الِاسْتِدْرَاكِ عَنْ قَوْلِهِ: إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ الشَّامِلِ لِمَقَالَةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَهُمْ لِاخْتِلَافِ جِنْسَيِ الْقَوْلَيْنِ"[(٣)].

٩- قوله تعالى:﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدا ٢٧﴾.[الجن].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: بعد أن أخبر الرسول(ﷺ) المشركين- كما سبق في تحليل الآية(٢٣) من السورة- بأنه لا يملك لهم ضرًا ولا رشدًا وما عليه إلا البلاغ، وأنه من يعص الله ورسوله فلَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِا فِيهَا لا زال هؤلاء المشركون سائرين في ضلالهم مغرورين بأنفسهم فيستهزئون بوعيدك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرا وَأَقَلُّ عَدَدا ٢٤﴾ وكان المشركون

---

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ١٥٦.

(٢)ينظر: معانى القرآن للأخفش ٢/ ٥٤١، والهداية للقيسي١١/ ٧٤٢٠، والتحرير والتنوير٢٨/ ١٤٥.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٨/ ١٤٥.

حينما يسمعون هذا التهديد بالعذاب يوم القيامة ينكرونه ويستهزئون به فأمر الله النبي(ﷺ) أن يقول لهم:﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيب مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾؛ لأنه﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ استأثر به وحده﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ ثم استثنى﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُول فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدا ٢٧﴾ وقوله:﴿رَصَدا﴾ المراد بهم هنا "الملائكة الحفظة، أي فإنه يسلك من بين يدى من ارتضى من رسله ومن خلفهم حفظة من الملائكة يحفظونهم من وساوس شياطين الجن وتخاليطهم حتى يبلغوا ما أوحى به إليهم، ومن زحمة شياطين الإنس حتى لا يؤذونهم"[1].

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: اختلف في الاستثناء في الآية فقيل قوله تعالى:﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُول﴾ استثناء متصل من ﴿أَحَدًا﴾ في قوله:﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي أنه تعالى عالم الغيب استأثر به وحده، ولا يطلع أحدًا عليه﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُول﴾ أي اصطفاه منهم فإنه يظهره على ما شاء مما هو قليل من كثير ليكون ذلك دالاً على نبوته؛ لأن الرسُلَ يستدل على نبوتهم بالمعجزات والاطلاع علي الغيب، ثم يبث الله حول ذلك الرسول ملائكة حفظة يحفظونه من الجن والإنس، وقد ذهب إلي هذا ابن عباس وقتادة وابن زيد. ويجوز أَنْ يكونَ قوله تعالي:﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ استثناء منقطعًا، والمعنى:﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ أي غيب﴿أَحَدًا﴾ مهما كان، لكنْ مَنْ ارتضاه من الرُّسُلِ فإنه يَجْعَلُ له ملائكةً رَصَدًا يَحْفظونه حتى يفرغ جبريل من الوحي[2].

ومن العلماء من ذهب إلي استخدام السياق في الحمل علي انقطاع الاستثناء وتخصيص الغيب بوقت وقوع القيامة، كَأَنَّهُ قَالَ: عَالِمُ الغيب فلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ

---

(١) تفسير المراغي ٢٩/ ١٠٧.

(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٤٦٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٣٧، والدر المصون للسمين الحلبي ١٠/ ٥٠٦، والبحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ٣٠٥، فتحُ البيان لمحمد صديق خان ١٤/ ٣٦٩، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٥/ ١٢٤٢.

الْمَخْصُوصِ وَهُوَ قِيَامُ الْقِيَامَةِ أَحَدًا، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: لَكِنْ مَنِ ارْتَضَى من رسول الله فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ حَفَظَةً يَحْفَظُونَهُ مِنْ شَرِّ مَرَدَةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا الْكَلَامَ جَوَابًا لِسُؤَالِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ وَقْتِ وُقُوعِ الْقِيَامَةِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ بِهِ، وَالِاسْتِحْقَارِ لِدِينِهِ وَمَقَالَتِهِ[1]. وقد ذكر مقاتل: إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرا وَأَقَلُّ عَدَدا ٢٤﴾ قال النضر بن الحارث: متى يكون هذا اليوم الذي توعدنا به؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيب مَّا تُوعَدُونَ﴾ إلى آخر الآيات[2].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح الرأي الأخير من انقطاع الاستثناء؛ فالأصل أن الغيب أيًا كان لا يعلمه إلا الله كما قال الله:﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[النمل:٦٥] والتعبير القرآني دقيق وصريح في هذا حيث يقول: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[الأنعام:٥٩] أي: إن الله لم يُعْطِ مفتاح الغيب لأحد، وهذا هو الغَيْب المطلق، وهو غَيْب عن كل أحد استأثر به تعالى وحده، ولكن قد يطلع الله بعض عباده ويكشف لهم عن بعض الغيب- مع كون مفتاحه عنده جملة وتفصيلًا- لحكمة قال تعالي:﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾[البقرة:٢٥٥]، والنبي(ﷺ) أعلمه ربه كثيرًا من الأحداث التي تقع في مسيرة دعوته، وهذا له العديد من المواقف التي ينزل فيها الوحي ليخبر النبي(ﷺ) بأخبار أصحابه أحيانًا وأخبار المشركين أحيانًا أخرى، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قد أطلعه الله على بعض الغيب، وذلك بما قصّ عليه من أخبار إخوانه السابقين من الأنبياء، وما فعله كل قوم مع نبيهم من ضلالات وسفاهات، وما تحمله كل نبي من ضر وأذى في سبيل تبليغ دعوة ربه، فهذا هو الغيب الذي﴿يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣٠/ ٦٧٨ وما بعدها، ومحاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٣٣٧.
(٢) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٤٦٦.

وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدا﴾. أحداث ذات الشأن العظيم في مسيرة دعوته(ﷺ). وهذا قد جاء في القرآن كثيرًا، ومن ذلك ما جاء في شأن كفالة السيدة مريم:﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤﴾[آل عمران]. وكذا ما يشير إليه قول الله مخاطبا رسوله(ﷺ) بعد أن قص عليه قصة نبي الله يوسف(عليه السلام):﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢﴾[يوسف]. كما اطلع الله نبيه(ﷺ) ليلة المعراج علي العديد من أمور الغيب في حضرة﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩﴾. وأيضًا قد أطلع الله بعض رسله علي بعض الغيب، كما أخبر الله نبيه نوح(عليه السلام) بعدم إيمان أحد من قومه إلا من قد آمن من قبل، ومن ثم غرقهم ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ...وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ٣٧﴾[هود] وكما أوحى الله إلى نبيه صالح(عليه السلام) بهلاك قومه بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوب ٦٥﴾[هود]. وكما جاء في قصة عيسى(عليه السلام) مع قومه﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٤٩﴾[آل عمران]. وجاء علي العموم في حق نبينا(ﷺ) قوله تعالى:﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾[هود:١٢٠] ففي كل هذا تثبيت لرسوله(ﷺ) في مواجهة ما يجده من أذي قومه، لما يرى ما أصاب إخوانه الرسل من أقوامهم من نحو ذلك.

والإمام الرازي يستخدم السياق في ترجيح انقطاع الاستثناء، وأن المراد بالغيب في الآية التي نحن بصددها الغيب المخصوص وهو قيام الساعة، وليس جميع الغيب، فيذكر أَنَّ قَوْله:﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦ﴾ لَيْسَ فِيهِ صِيغَة عُمُومٍ، فَيَكْفِي فِي الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ أَنْ لَا يُظْهِرَ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى غَيْبٍ وَاحِدٍ مِنْ غُيُوبِهِ، فَنَحْمِلَهُ عَلَى وَقْتِ وُقُوعِ الْقِيَامَةِ، وَالَّذِي يُؤَكِّدُ هَذَا التَّأْوِيلَ أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ عَقِيبَ قَوْلِهِ:﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيب مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾[الجن] يَعْنِي لَا أَدْرِي وَقْتَ وُقُوعِ الْقِيَامَةِ، قَالَ عَطَاء: يُرِيدُ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا الله وَحْدَهُ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ:﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ

عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أَيْ وَقْتَ وُقُوعِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي لَا يُظْهِرُهُ اللهُ لِأَحَدٍ، وَبِالْجُمْلَةِ فَقَوْلُهُ: عَلى غَيْبِهِ لَفْظٌ مُفْرَدٌ مُضَافٌ، فَيَكْفِي فِي الْعَمَلِ بِهِ حَمْلُهُ عَلَى غَيْبٍ وَاحِدٍ، فَأَمَّا الْعُمُومُ فَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ دَلَالَةٌ عَلَيْهِ، فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا حَمَلْتُمْ ذَلِكَ عَلَى الْقِيَامَةِ فَكَيْفَ قَالَ:﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ مَعَ أَنَّهُ لَا يُظْهِرُ هَذَا الْغَيْبَ لِأَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ؟ قُلْنَا: بَلْ يُظْهِرُهُ عِنْدَ الْقُرْبِ مِنَ إِقَامَةِ الْقِيَامَةِ، وَكَيْفَ لَا وَقَدْ قَالَ:﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥﴾[الْفُرْقَانِ] وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَعْلَمُونَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قِيَامَ الْقِيَامَةِ، وَأَيْضًا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الِاسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا، كَأَنَّهُ قَالَ: عَالِمُ الغيب فلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ الْمَخْصُوصِ وَهُوَ قِيَامُ الْقِيَامَةِ أَحَدًا، ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: لَكِنْ مَنِ ارْتَضَى من رسول الله فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ حَفَظَةً يَحْفَظُونَهُ مِنْ شَرِّ مَرَدَةِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا الْكَلَامَ جَوَابًا لِسُؤَالِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ وَقْتِ وُقُوعِ الْقِيَامَةِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ بِهِ، وَالِاسْتِحْقَارِ لِدِينِهِ وَمَقَالَتِهِ[1].

يتضح مما سبق دور السياق في ترجيح انقطاع الاستثناء، وأن المراد بالغيب في الآية الغيب المخصوص من قيام الساعة، فالسياق الخارجي كما ذكر مقاتل والرازي يؤكد ذلك، فالمشركون لما سمعوا قوله تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرا وَأَقَلُّ عَدَدا﴾ قال النضر: متى يكون هذا اليوم؟ فنزل:﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيب مَّا تُوعَدُونَ﴾ إلى آخر الآيات. ورسولنا(ﷺ) كثيرًا ما كان يسأل عن وقت قيام الساعة فلا يجيب عنها، وأكبر دليل ما جاء في الحديث الذي ظهر فيه جبريل(عليه السلام) للنبي(ﷺ) في صورة أعرابي فكان فيما سأله أن قال[مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ][2] وسأل رجل النبي(ﷺ) فقَالَ:[مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهَا قَائِمَةٌ فَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟...] وقال تعالي عن علم قيام الساعة﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣٠/ ٦٧٨ وما بعدها، ومحاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٣٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ ١١٥-ح/ ٤٧٧٧(كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ).

يُبْعَثُونَ ٢١﴾. والسياق اللغوي(الداخلي) يرجح انقطاع الاستثناء فدُخُولُ" الْفَاءِ فِي﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ﴾ دَلِيلُ انْقِطَاعِهِ وَلَوْ كَانَ مُتَّصِلًا لَتَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ رسول"[1].

١٠- قوله تعالى:﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٢٥﴾ [الإنشقاق].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: ذكر الله تعالى في سورة الإنشقاق إشارات إلى مشاهد القيامة وأهوالها، ثم أقسم ببعض مخلوقاته وآلائه علي وقوع الساعة فقال:﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾ ثم جاء جواب القسم﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ أي:" لتركبن أحوالًا بعد أحوال هي طبقات في الشدّة بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها"[2]. ثم قال:﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ٢١﴾ الاستفهام للإنكار، والمعنى: أي شيء يمنعهم من الإيمان بالله وبصحة البعث مع وجود موجبات الإيمان بذلك، ثم ذكر سبحانه السبب في عدم إيمانهم بالقرآن المشتمل على إثبات التوحيد والبعث، فقال:﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ٢٣﴾ أي: بِمَا يُضْمِرُونَه فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْعِنَادِ والجحود مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ حَقٌّ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾ غاية الإيلام، وَالْكَلَامُ خَارِجٌ مَخْرَجَ التَّهَكُّمِ بِهِمْ، ثم استثني﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٢٥﴾.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية:قوله﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قيل مستثني مِنْ ضمير الْجَمْع في:﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الراجع إلى﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والاستثناء متصل من الجنس والمعنى:

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ٢٣٧.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ٧٢٨.

فَبَشِّرْهُمْ-الَّذِينَ كَفَرُوا- بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِلَّا مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَالِ كُفَّارًا إِلَّا أَنَّهُمْ مَتَى تَابُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غير مقطوع، أي إن الله استثنى من الكفار القوم الذين سبق لهم الإيمان في قضائه[١]. ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِثْنَاءُ-أيضًا- مُتَّصِلًا عَلَى أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ:﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ جَرْيًا عَلَى تَأْوِيلِهِ بِرُكُوبِ طِبَاقِ الشَّدَائِدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا هُوَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ[٢].

وقيل الِاسْتِثْنَاءُ منقطع الجنس من الضمير المنصوب في قوله:﴿فَبَشِّرْهُم﴾ الراجع إلى﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فتكون البشارة في ذلك العذاب الفظيع خاصة بالمكذبين، والمستثنى- وهم المؤمنون- خارجون عنهم، فالموصولُ عبارةً عن المؤمنينَ كافَّة، كَأَنَّهُ قَالَ: هذا هو حال الكافرين لَكِنَّ الَّذِينَ صَدَّقُوا بِشَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [٣].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح كون الاستثناء منقطعًا؛ ومما يدل علي ذلك السياق غير اللغوي(الخارجي) وهو ما جاء في سبب نزول الآية وهو أن الرسول (ﷺ) قرأ ذات يوم قوله تعالي:﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب١٩﴾ فسجد هو ومن معه من المؤمنين وقريش تصفق فوق رؤوسهم وتصفر، فنزلت [٤]. فلا يجوز أن يكون الاستثناء متصلًا؛ لأن الضمير في قوله:﴿فَبَشِّرْهُم﴾ راجع إلى الذين كفروا، وهو قد وضع موضع المظهر للإشعار بأنهم لا يؤمنون ولا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم لأنهم كافرون مكذبون، ولأن الذين آمنوا ليسوا من المكذبين في شيء [٥].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣١/ ١٠٥، والتفسير الوسيط للزحيلي ٣/ ٢٨٥٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٣٠/ ٢٣٤.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/ ٢٨٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير٨/ ٣٥٦.

(٤) ينظر: الكشاف للزمخشري ٤/ ٧٢٨.

(٥) ينظر: فتحُ البيان لمحمد صديق خان ١٥٣/١٥، وتفسير جزء عم للعثيمين صـ١٢٢.

ومما يدحض قول من قال إن الاستثناء متصل السياق اللغوي وهو قوله تعالي:﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لأن الأجر المذكور لا يخص الذين سيؤمنون من الكفار بل المؤمنين عامة، يقول الألوسي:"﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء منقطع من الضمير المنصوب في﴿فَبَشِّرْهُم﴾ وجوز أن يكون متصلًا على أن يراد بالمستثنى من آمن وعمل الصالحات بعد منهم أي من أولئك الكفرة... ولا يخفى ما فيه من التكلف مع أن الأول أنسب منه بقوله تعالى:﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لأن الأجر المذكور لا يخص المؤمنين منهم بل المؤمنين كافة، وكون الاختصاص إضافيًا بالنسبة إلى الباقين على الكفر منهم خلاف الظاهر"(١).

ومما يدل علي أن الأظهر انقطاع الاستثناء السياق اللغوي، وهو مجيء قوله:﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ بغير فاء، حيث بنى الكلام هاهنا على الاستئناف وعدم علاقة الآية بما قبلها فلم يحتج إلى الفاء، بخلاف سورة التين حيث أورد الفاء على التعقيب فقال﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(٢). ومما يدل علي انقطاع الاستثناء ما رواه عكرمة عن ابن عباس﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال: الشيخ الكبير إذا كبر وضعف وقد كان يعمل شيئًا من الخير وقت قوته كتب له مثل أجر ما كان يعمل قال:﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٣). ولذا ذكر ناس من أهل العلم أن قوله: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ليس استثناء، وإنما هو بمعنى الواو، كأنه قال: والذين آمنوا (٤).

١١- قوله تعالى:﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّر ٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ

(١) روح المعاني للألوسي ١٥/ ٢٩٣.

(٢) ينظر: غرائب القرآن للنيسابوري ٦/ ٤٧٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٩/ ٤٤٢.

(٣) ينظر: إعراب القرآن للنَّحَّاس ٥/ ١١٨.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/ ٢٨٢، والتفسير المنير، وهبة الزحيلي ٣٠/١٥٠.

وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ٢٤﴾.[الغاشية].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: تتحدث سورة الغاشية من أولها عن يوم القيامة وعن الإيمان به وما يحدث فيه من عذاب ونعيم، ثم ذكر تعالى بعضًا من أدلة قدرته على بعث الأجساد ويتعجب من الكفار في عدم تفكرهم في الدليل﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠﴾ وبعد كل هذه الأدلة فما علي الرسول إلا البلاغ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّر ٢١﴾ فأنت﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢﴾. والمصيطر[1]: المتسلط على غيره بالقهر، وَالْمَعْنَى أَنَّكَ مَا أُمِرْتَ إِلَّا بِالتَّذْكِيرِ، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُسَلَّطًا عَلَيْهِمْ حَتَّى تَقْتُلَهُمْ، أَوْ تُكْرِهَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ فَلَا.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: المستثنى قوله:﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾ واختلفوا في هذا الاسْتِثْنَاءِ، فقال بعضهم: أَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ حَقِيقِي أي متصل، وهَذَا فِيهِ احْتِمَالَانِ، الْأَوَّلُ: أَنْ يُقَالَ هو استثناء من مفعول فذكر المقدرِ أي: فَذَكِّرْ كل أحد إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ وانقطع طمعك من إيمانه وأصر على الكفر فإنّه لا ينفعه التذكير، فاستحق العذاب الأكبر، وعلى هذا القول تكون جملةُ النفي اعتراضًا. وَالثَّانِي: إِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ من الضمير في عَلَيْهِمْ، أي لا تصيطر إلا على من تولى وكفر فأنت مسلَّط عليه بالجهاد، فإلا هنا "استثناء من عموم الأحوال التي تدخل في السيطرة الواقع عليها النفي، أي لست مسيطرًا على الناس إلا في حال واحدة، وهى حال من تولى وكفر، فإنه في هذه الحال واقع تحت سلطان العذاب الذي أنذرته به، وهذا العذاب في يد الله يعذب به هؤلاء الذين تولوا وكفروا"[2]. هذا كلُّه إذا

---

(١)ينظر:البَسِيْط للواحدي٢٣/٤٧٦،وإعراب القرآن للأصبهاني صـ٥١٩، مفاتيح الغيب٣١/١٤٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب ١٦/ ١٥٤٤.

لم يُجْعَل﴿مَن تَوَلَّى﴾ شرطًا وما بعده جزاؤه، فإنْ جَعَلْتَه كذلك كان منقطعًا. وقيل: إنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ عَمَّا قَبْلَهُ، كَمَا تَقُولُ: قعدنا نتذكر الْعِلْمَ إِلَّا أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يرغب، وتكون إلا ألغي عملها فهي لِلِاسْتِدْرَاكِ، أي﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّر ٢١لسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ٢٢﴾ "وتم الكلام، وعليه يصح الوقف هنا، وهي آية موادعة منسوخة بالسيف، ثم قال إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ الله"[1]. فالخبر محذوف يعنى لكن من تولى منهم وَكَفَرَ فالله مصيطر ومسلط وقاهره فيعذبه العذاب الأكبر[2].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه ترجيح انقطاع الاستثناء؛ لعدة أسباب، أولًا: أكثر المفسرين على انقطاع الاستثناء، وأنه الأولى والصحيح[3]، وبعض العلماء[4] عد عود الاستثناء على:﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ من قبيل الغريب، وعوده على:﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّر﴾ من قبيل العجيب، بل هناك من لم يذكر غير انقطاع الاستثناء[5].

ثانيًا: وجهت بعضًا من النقود لاتصال الاستثناء، فعلى فرض أن الاستثناء راجع إلى مفعول قوله تعالى:﴿فَذَكِّرْ﴾ "يرده أنه(ﷺ) لا ينقطع طمعه من إيمان الكفرة ما داموا أحياء إلا أن يعلمه الله بذلك، وعلى تقدير الإعلام أيضًا لا يجوز أن يقطع التذكير؛ لأن الدعوة عامة في الأصل ولو جعلت خاصة لم تبق مضبوطة"[6] .

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٥/ ٤٧٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٨ وما بعدها، وإعراب القرآن للنَّحَّاس ٥/ ١٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٨١٥، والنكت في القرآن للمُجَاشِعِي صـ ٥٥٣، والدر المصون ١٠/٧٧١.

(٣) ينظر: إعراب القرآن العظيم لزكريا الأنصاري صـ ٥٥٨، وفتح القدير للشوكاني ٥/ ٥٢٤، والتفسير الوسيط، د/ وهبة الزحيلي ٣/ ٢٨٧٠.

(٤) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني ٢/ ١٣٣٥.

(٥) ينظر: زاد المسير لابن الجوزي ٤/ ٤٣٦، وفتح الرحمن لمجير الدين العليمي ٧/ ٣٥٢.

(٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٦/ ٤٩٢.

وعلى فرض أن الاستثناء راجع إلى قوله تعالى:﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ فهذا بعيد؛ لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة، والقتال إنما نزل بالمدينة [١]. يقول الواحدي :" ذكر بعض النحويين أن هذا الاستثناء يجوز أن يكون عن الضمير في(عليهم) على تقدير: لست عليهم بمسيطر إلا على من تولى وكفر، وهذا ليس بالسهل؛ لأن النبي(ﷺ) ما كان حينئذ مأمورًا بالقتال، ولا مسلطًا على أحد" [٢].

ومما يرجح انقطاع الاستثناء تلك القاعدة التي أشار إليها العلماء بحسن إنّ مع انقطاع الاستثناء، فإذا حسنت معه كان منقطعًا، وإلا كان متصلًا صحيحًا، يقول الفراء:" وتعرف المنقطع من الاستثناء بِحُسْن إن فِي المستثنى، فإذا كَانَ الاستثناء محضًا متصلًا لم يحسن فِيهِ إنّ، ألا ترى أنك تَقُولُ: عندي مائةٌ إلّا درهمًا، فلا تدخل إن هاهنا فهذا كاف من ذكر غيره "[٣]. وهاهنا يحسن دخول إنّ، فإنك تقول: إلا إنّ من تولى وكفر فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ[٤]. ومما يقوي انقطاع الاستثناء قِرَاءَة ابن عباس، وعمرو بن العاص، وأنس بن مالك، وزيد بن عليٍّ، وزَيْدُ بنُ أسلمَ، وأبو مجلز، وقتادة، وسعيد بن جبير﴿ألا من تولّى﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام حرف استفتاح وتنبيه [٥]. وكذا قِرَاءَة ابْنِ مَسْعُودٍ:﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ اللهُ﴾[٦].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٧٥/٥، والجواهر الحسان للثعالبي ٥٨٤/٥.

(٢) التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٢٣/ ٤٧٧ وما بعدها.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٥٩.

(٤) ينظر: جامع البيان للطبري ٣٩١/٢٤، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨٢٣٠/١٢، والتَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي ٤٧٧/٢٣، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤٧/٣١.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٤٧٥/٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٣٦/٤، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٣٠٣/٢٠.

(٦) ينظر:كتاب المصاحف للسجستاني صـ١٨٦،والكشاف٧٤٥/٤،الجامع لأحكام القرآن٣٧/٢٠.

ومما يقوي انقطاع الاستثناء السياق اللغوي وهو وجود الفاء في جواب الشرط ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ يقول القرطبي:" مَنْ عَلَى هَذَا لِلشَّرْطِ وَالْجَوَابُ فَيُعَذِّبُهُ الله، وَالْمُبْتَدَأُ بَعْدَ الْفَاءِ مُضْمَرٌ وَالتَّقْدِيرُ: فَهُوَ يُعَذِّبُهُ الله؛ لِأَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ الْجَوَابُ بِالْفِعْلِ الَّذِي بَعْدَ الْفَاءِ لَكَانَ: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ يُعَذِّبُهُ الله"(١). ويؤكد علي هذا ابن عاشور فيقول:" وَدَخَلَتِ الْفَاءُ فِي الْخَبَرِ وَهُوَ فَيُعَذِّبُهُ الله؛ إِذْ كَانَ الْكَلَامُ اسْتِدْرَاكًا وَكَانَ الْمُبْتَدَأُ مَوْصُولًا فَأَشْبَهَ بِمَوْقِعِهِ وَبِعُمُومِهِ الشُّرُوطَ فَأُدْخِلَتِ الْفَاءُ فِي جَوَابِهِ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ٤﴾"(٢).[مُحَمَّد].

١٢- قوله تعالى:﴿ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٠﴾.[الليل].

المناسبة السياقية- القبلية والنصية- للاستثناء في الآية: بين سبحانه لعباده- قبل هذه الآيات- أنه قد أعذرهم، حيث وضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وكشف لهم عن عاقبة كل منهما، فقال:﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ الكافر بالله وبرسوله وما جاء به، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَأَمْثَالِهِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا وَالْأَنْبِيَاءَ قَبْلَهُ، وكعادة القرآن في المقابلة بين الأشرار والأخيار جاء الحديث بعد ذلك عن حال الأتقياء، فقال تعالى﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ١٧﴾ يعني أبا بكر(ﷺ) في قول الأكثر، وحكى بعضهم الإجماع، ثم وصفه الله فقال:﴿ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾ أي: تزكية لماله، وتطهيرًا لنفسه من شبهة الرياء والتفاخر﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩﴾ أي ليس لغيره عليه نعمة أسداها له هذا الغير، قال المفسرون: لما اشترى أبو بكر(ﷺ) بلالًا من أُمَيَّة وأعتقه- بعد أن كان يعذب في الرمضاء- قَالَ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/ ٣٨.

(٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ٣٠/ ٣٠٨.

الْمُشْرِكُونَ: مَا أَعْتَقَهُ أَبُو بَكْرٍ إِلَّا لِيَدٍ كَانَتْ لَهُ عِنْدَ بلال أراد أن يجزيه بها، فقال الله تعالى ردًا عليهم:﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ١٩﴾ ثم استثنى﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ٢٠﴾ أي لطلب رضا الله والظفر بثوابه، والإخلاص لعبادته[١].

وعمومًا فهذه الآيات نزلت باتفاق كثير من المفسرين في أبي بكر وفي أمية بن خلف، إلا أن المعنى على العموم لقوله تعالى﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ٤﴾ فهي تَتَنَاوَلُ كلَّ مَنْ دَخَلَ في هذِه الصفاتِ؛ ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

موضع الاستثناء والأثر الدلالي الناتج عن الخلاف في الاستثناء في الآية: ذهب كثير العلماء إلى أن قوله:﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع من قوله:﴿مِن نِّعْمَةٍ﴾؛ لأن الابتغاء لا يندرج فيها، فهو مُسْتَثْنًى مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ، فالمعنى: لكنه فعل ذلك لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة لأحد على نعمة. وجوّز البعض أن يكون استثناء متصلًا ويَكُونَ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ نصبه عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ لَهُ عن محذوف؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ: لا يُؤْتِي مالَه إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأةِ نعمةٍ، وذكر الْفَرَّاءُ: أنه نُصِبَ عَلَى تَأْوِيلِ اضْمَارِ الْإِنْفَاقُ عَلَى تَقْدِيرِ: مَا يُنْفِقُ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى، كَقَوْلِهِ:﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وعلي هذا فالاستثناء متصل [٢].

الرأي الراجح: والذي أميل إليه هو ترجيح انقطاع الاستثناء في الآية؛ لأنه استثناء ليس من الأول؛ لأن الابتغاء ليس من جنس النعمة، كقولك: ما في الدار أحد إلا

---

(١) ينظر: أسباب نزول القرآن للواحدي صـ٤٧٨ وما بعدها، ومفاتيح الغيب للرازي ١٨٢/٣١ وما بعدها، والتفسير الوسيط، د/ محمد سيد طنطاوي ٤١٨/١٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: الكشاف ٧٦٤/٤، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣١٨/٥، والبحر المحيط ٤٩٤/١٠، وإرشاد العقل السليم ١٦٨/٩، وغاية الأماني للكوراني صـ٤٠١، وروح المعاني ٣٧١/١٥.

حمارًا، وهو قول أهل الحجاز وأكثر النحويين ولم يذكر البصريون غيره [(١)].ومما يدل علي انقطاع الاستثناء قراءة يحيى بن وثاب﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءُ وَجْهِ رَبِّهِ﴾ بِالرَّفْعِ عَلَى الْبَدَلِ مِنْ مَحَلِّ نِعْمَةٍ؛ لِأَنَّ مَحَلَّهَا الرَّفْعُ إِمَّا عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ وَإِمَّا على الابتداء، على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حمار، وَهِيَ لُغَةُ تَمِيمٍ، لِأَنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ الْبَدَلَ فِي الْمُنْقَطِعِ، ومن هذا قول القائل [(٢)]. [الرجز]

وَبَلْدَةٌ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ ... إِلَّا الْيَعَافِيرُ وَإِلَّا الْعِيسُ

واليعافير بالرفع: بدل من أنيس على لغة تميم في الاستثناء المنقطع بعد النفي، وإلا الثانية توكيد للأولى، وَفِي التَّنْزِيلِ:﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيل مِّنْهُمْ﴾[النساء:٦٦][(٣)].

وقد ذكر العلماء أن(إلاَّ) في الاستثناء المنقطع لها معنيان: أحدهما: أن يكون الذي بعدها مستأنفًا، يلابس الأول من جهة عائد عليه منها، أو معنى يقرب به منه، كقول القائل: قعدنا نتذاكر الخير وما يقرّبنا من الله، إلا أن قومًا يبغضون ما كنا فيه. فالذي بعد(إلا) مستأنف، يلبس بالأول من جهة المعنى، وذلك بغضهم لما كانوا فيه، فتأويل إلا بمعني لكن قومًا. ولذلك يقول النحويون:(إلا) في الاستثناء المنقطع بمنزلة(لكن)؛ لأن الذي بعد(لكن) مستأنف. والمعنى الثاني: أن يكون الذي بعد(إلا) مؤكدًا لما قبله، وذلك أن الرجل إذا قال: ارتحل الناس إلا الأثقال، أكّد ارتحال الناس بقوله: إلا الأثقال، وذهب إلى أنه إذا لم يبق إلا الأثقال، كان القوم كلهم مرتحلين، وكان تأويله: ارتحل الناس كلهم. وكذلك: مضى العسكر إلا الأبنية والخيام، فهذان

---

(١) ينظر: إعراب القرآن للنَّحَّاس ١٥١/٥، وإعراب القرآن للأصبهاني صـ٥٢٧، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري ١٢٩١/٢، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٣٩١/٣٠، والعَذْبُ النَّمِيرُ للشَّنْقِيطِيِّ ٤٣٤/١، التفسير المنير، د/ وهبة الزحيلي ٢٧٣/٣٠.

(٢) البيت لعامر بن الحارث النميري، ينظر: ديوانه صـ٣٤، واليعافير: جمع يعفور وهو ولد البقرة الوحشية. والعيس بكسر العين وهي الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة.

(٣) ينظر: الكشاف الزمخشري ٧٦٤/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨٩/٢٠، والبحر المحيط حيان الأندلسي ٤٩٤/١٠، وفتح القدير للشوكاني ٥٥٣/٥.

المعنيان في الاستثناء المنقطع تحتملهما الآية؛ وعلي هذا فانقطاع الاستثناء في الآية التي نحن بصددها أبلغ وأليق بالصديق-رضي الله عنه- وكل من اتصف بهذه الصفات؛ لأن المعني سيكون﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ أي ليس لغيره عليه أي نعمة أسداها له هذا الغير، سواء كانت هذه النعمة مال أو غيره، قال أبو عبيدة:﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ﴾ استثناء من النعمة، كما يُستثنى الشيء وليس منه. والعرب تقول: مَا في الدار أحد إلا أكلبًا وأحمرةً، وهذا كقول النابغة[1].[البسيط]

وَقَفْتُ فيها أُصَيلانًا أُسائِلُها... عَيَّتْ جوابًا وما بالرَّبعِ من أحَدِ

إلا الأواريَّ لأيًا ما أُبَيِّنُهَا ... والنُّؤي كالحَوضِ بالمظلومة الجَلدِ

وهي لغة أهل الحجاز[2].

(١) البيت في ديوانه صـ٩، وأصيلان: تصغير أصيل وهو العشي، والأواري:محابس الخيل، والنؤْيُ: حاجز من تراب، والمظلومة: الأرض التي لم تمطر فجاءها السيل فملأها.

(٢) ينظر: معاني القران للفراء ٢٧٢/٣ وما بعدها، والتَّفْسِير البَسِيْط للواحدي٣/٤١٠، ٢٤/ ٩٠.

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء سيدنا محمد وآله وصحبه ومن والاه، وبعد،

فقد فرغت- بتوفيق الله وعونه- من إخراج هذا البحث على الصورة السالفة، وقد تناولت فيه بالدراسة والتحليل آخر سبعة أجزاء ونصف من القرآن الكريم وقع فيها الخلاف بين العلماء حول اتصال الاستثناء وانقطاعه، وكان من أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة ما يلي:

١- بالرغم من صحة ما ذهب إليه العلماء من أن الأصل في الاستثناء الاتصال، ولا يلجأ للانقطاع إلا عند إقامة الحجة القوية عليه، ولكن ما ذهب إليه بعض العلماء من إنكار الاستثناء المنقطع واجتهادهم في جعل ما ظاهره الانقطاع أن يكون من قبيل المتصل يعتبر خطأ، وقد رد ابن عطية عليهم فقال:" ولا ينكر وقوع المنقطع في القرآن إلا أعجمي[١].

٢- ما ذهب إليه بعض النحاة في التفرقة بين الاستثناء المتصل والمنقطع باعتبار الجنس يحتاج إلي إعادة نظر؛ فهناك العديد من الشواهد مستثناة من الجنس وهي من قبيل الاستثناء المنقطع كقوله تعالي:﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾[الدخان:٥٦] والأولى أن يكون الفرق بينهما باعتبارين، أحدهما: إذا كان الْمُسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ فهو متصل، وإلا فهو منقطع، والثاني: إذا كان الْحُكْمُ عَلَى الْمُسْتَثْنَى بِنَقِيضِ الْحُكْمِ عَلَى الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ فهو متصل، فَإِذا كَانَ الْحُكْمُ عَلَى الْمُسْتَثْنَى لَيْسَ نَقِيضَ الْحُكْمِ عَلَى الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ فَهُوَ مُنْقَطِعٌ وَلَوْ كَانَ الْمُسْتَثْنَى مِنْ جِنْسِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ كالآية السابقة.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٤٨٢/٣.

٣- قوة دلالة الاستثناء المنقطع وتأكيده لما قبله، فلو قيل: حضر القوم إلا الأبنية، فقد أكّد حضور القوم بقوله: إلا الأبنية، وكان المعني أن القوم كلهم جميعًا حضروا ولم يتخلف واحد منهم حتي كأنه لم يبق إلا الأبنية أن تحضر، وقد اتضح هذا في شواهد الاستثناء المنقطع كقوله تعالي:﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤﴾.[ص].

٤- أسهم أسلوب الاستثناء بوجهيه المتصل والمنقطع في إثراء ظلال دلالية للآيات الكريمة محل البحث مما أكسبها تنوعًا في الدلالة، وقد كان للسياق الدور البارز في تحديد قيمة لغوية واحدة للاستثناء.

وأخيرًا: أوصي بتتبع وتحليل الأساليب التي تتردد بين اتصال الاستثناء وانقطاعه في ما بقي من آيات القرآن الكريم، وكذلك ما جاء منها في سنة رسول الله(ﷺ)؛ لما لذلك من أثر في اختلاف الدلالة.

المصادر

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود العمادي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٢- أسباب نزول القرآن للواحدي- حققه: كمال بسيوني زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت-ط١-١٤١١هـ.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي- دار الفكر- بيروت - لبنان-١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

٤- إعراب القرآن أبو جعفر النَّحَّاس- علق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم- منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-ط١- ، ١٤٢١هـ.

٥- إعراب القرآن العظيم لزكريا الأنصاري حققه/ د: موسى على موسى-ط١- ١٤٢١ هـ-٢٠٠١م.

٦- إعراب القرآن للأصبهاني، قدم له/ د: فائزة بنت عمر المؤيد- فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض-ط١- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٧- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش- دار الإرشاد للشئون الجامعية- حمص- سوريا.

٨- الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم(مدخل إلي بلاغته) د/ وليد إبراهيم حمودة، بحث منشور بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود-٢٠١٢م.

٩- الاستغناء في الاستثناء لشهاب الدين القرافي، حققه/ محمد عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت- ط١-١٩٨٦م-١٤٠٦هـ.

١٠- البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي حققه: صدقي محمد جميل دار الفكر- بيروت-١٤٢٠ هـ

١١- البرهان في علوم القرآن للزركشي- حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه-ط١- ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧م.

١٢- التبيان في إعراب القرآن للعكبري- حققه: علي محمد البجاوي- الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٣- التحرير والتنوير لمحمد لطاهر بن عاشور- الدار التونسية للنشر – تونس- ١٩٨٤هـ.

١٤- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي- حققه/ د:عبد الله الخالدي- شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم- بيروت-ط١- ١٤١٦ هـ.

١٥- التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ليحيى بن سلام- حققه: هند شلبي- الشركة التونسية للتوزيع- ١٩٧٩م.

١٦- التَّفْسِيرُ البَسِيْط للواحدي- حققه: لجنة علمية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -عمادة البحث العلمي -ط١- ١٤٣٠ هـ

١٧- التفسير البياني للقرآن الكريم لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ- دار المعارف – القاهرة- ط٧.

١٨- التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة- دار إحياء الكتب العربية – القاهرة- ١٣٨٣هـ .

١٩- التفسيرالقرآني للقرآن لعبد الكريم يونس الخطيب- دار الفكر العربي- القاهرة.

٢٠- التفسير المظهري لمحمد ثناء الله المظهري-حققه: غلام نبي التونسي- مكتبة الرشدية- الباكستان- ١٤١٢ هـ.

٢١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د: وهبة بن مصطفى الزحيلي- دار الفكر المعاصر – دمشق-ط٢- ١٤١٨هـ.

٢٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د:محمد سيد طنطاوي- دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة- القاهرة-ط١- ١٩٩٨.

٢٣- الجامع لأحكام القرآن لقرطبي- حققه: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية – القاهرة-ط٢- ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

٢٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي-حققه: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش-دار الكتب المصرية – القاهرة-ط٢- ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م..

٢٥- الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله- دار العاصمة – السعودية-ط١- ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٢٦- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي- حققه:محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود- دار إحياء التراث العربي- بيروت-ط١- ١٤١٨ هـ.

٢٧- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي- حققه/ د: أحمد محمد الخراط- دار القلم، دمشق.

٢٨- الدر المنثور للسيوطي- دار الفكر- بيروت.

٢٩- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربيني- مطبعة بولاق(الأميرية)- القاهرة- ١٢٨٥هـ.

٣٠- العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ لمحمد الأمين الشنقيطي- حققه: خالد بن عثمان السبت- دار عالم الفوائد، مكة المكرمة- ط٢- ١٤٢٦هـ.

٣١- الكتاب لسيبويه حققه/ عبد السلام محمد هارون-مطبعة الخانجي-ط٣- ١٩٨٨م.

٣٢-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري- دار الكتاب العربي- بيروت- ط٣- ١٤٠٧هـ.

٣٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي- حققه: أبي محمد بن عاشور- راجعه: نظير الساعدي-دار إحياء التراث العربي، بيروت-ط١-١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.

٣٤- الكليات للكفوي-حققه: عدنان درويش، ومحمد المصري- مؤسسة الرسالة- بيروت.

٣٥-اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي- حققه: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض-دار الكتب العلمية- بيروت-ط١- ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي- حققه: عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية – بيروت-ط١- ١٤٢٢هـ.

٣٧- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي- المكتبة العلمية- بيروت- بدون تاريخ.

٣٨- النحو المصفى لمحمد عيد- مكتبة الشباب- بدون تاريخ.

٣٩- النكت في القرآن الكريم لأبي الحسن المُجَاشِعِي-حققه/ د: عبد الله عبد القادر الطويل- دار الكتب العلمية – بيروت-ط١- ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧م.

٤٠- النكت والعيون للماوردي- حققه: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم-دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

٤١-الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه لمكي بن أبي طالب القيسي- حققه: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلم- جامعة الشارقة، بإشراف د: الشاهد البوشيخي- الناشر:مجموعة بحوث الكتاب والسنة- ط١- ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨م.

٤٢- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي- حققه: صفوان عدنان داوودي-دار القلم- دمشق- ط١-١٤١٥ هـ.

٤٣- الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي- حققه عادل أحمد عبد الموجود وآخرون- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان-ط١- ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤م.

٤٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي- حققه: محمد عبد الرحمن المرعشلي- دار إحياء التراث العربي- بيروت-ط١- ١٤١٨هـ.

٤٥- أوضح التفاسير لمحمد عبد اللطيف بن الخطيب- المطبعة المصرية-ط٦- ١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م.

٤٦- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام- دار الجيل- بيروت- ط٥- ١٩٧٩م.

٤٧- بحر العلوم للسمرقندي تحقيق/ د: محمود مطرجي- دار الفكر- بيروت.
٤٨- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة- حققه: إبراهيم شمس الدين-دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
٤٩- تأويلات أهل السنة للماتريدي حققه: د. مجدي باسلوم-دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان- ط١- ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٥٠- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك حققه: محمد كامل بركات- دار الكاتب العربي- القاهرة-١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
٥١- تفسير ابن عرفة لابن عرفة-حققه: الإمام السيوطي- دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان-ط١-٢٠٠٨م.
٥٢- تفسير القرآن أبو المظفر السمعاني-حققه: ياسر إبراهيم، وغنيم عباس- دار الوطن- الرياض- السعودية-ط١- ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٥٣-تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٩٠م.
٥٤- تفسير القرآن العزيز: بابن أبي زَمَنِين المالكي، حققه: أبو عبد الله حسين عكاشة، ومحمد مصطفى الكنز- الفاروق الحديثة- القاهرة- ط١-١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.
٥٥- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم- حققه: أسعد محمد الطيب-مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية-ط٣- ١٤١٩ هـ
٥٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير- حققه: محمد حسين شمس الدين- دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت-ط١- ١٤١٩ هـ.
٥٧- تفسير القرآن الكريم لابن قيم الجوزية- حققه: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان- دار ومكتبة الهلال- بيروت- ط١- ١٤١٠هـ.

٥٨- تفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر-ط١- ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.

٥٩-تفسير جزء عم د مساعد بن سليمان الطيار-دار ابن الجوزي-ط٨-١٤٣٠هـ.

٦٠- تفسير جزء عم لمحمد بن صالح العثيمين- دار الثريا للنشر- الرياض-ط٢- ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م.

٦١- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين الهرري- راجعه: د: هاشم محمد مهدي- دار طوق النجاة، بيروت – لبنان-ط١- ٢٠٠١م.

٦٢- تفسير عبد الرزاق عبد الرزاق الصنعاني دار الكتب العلمية حققه/ د: محمود محمد عبده- دار الكتب العلمية – بيروت-ط١- ١٤١٩هـ.

٦٣- تفسير مجاهد لابن مجاهد- حققه/ د: محمد عبد السلام أبو النيل- دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر-ط١- ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.

٦٤- تفسير مقاتل بن سليمان لمقاتل بن سليمان البلخي- حققه: عبد الله محمود شحاته- دار إحياء التراث– بيروت-ط١- ١٤٢٣هـ.

٦٥- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس لعبد الله بن عباس- جمعه: الفيروز آبادي- دار الكتب العلمية – لبنان.

٦٦- تهذيب اللغة الأزهري- حققه: محمد عوض مرعب- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط١- ٢٠٠١م.

٦٧- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري- حققه: أحمد محمد شاكر- مؤسسة الرسالة-ط١-١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م.

٦٨- جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي-دار الكتب العلمية – بيروت-ط١- ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م.

٦٩- دراسات لأسلوب القران الكريم، د: محمد عضيمة- دار الحديث-١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٧٠- دَرْجُ الدُّرر في تَفسِيرِ الآيِ والسُّوَر لعبد القاهر الجرجاني حققه: طلعت صلاح الفرحان، ومحمد أديب شكور- دار الفكر- عمان-ط١-١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٧١- ديوان عامر بن الحارث النميري- دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٩٩٣م.

٧٢- ديوان النابغة الذبياني-شرحه: عباس عبدالساتر- دار الكتب العلمية- بيروت- ط٣- ١٩٩٦م.

٧٣- روح البيان لإسماعيل حقي- دار الفكر- بيروت.

٧٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي-حققه: علي عبد الباري عطية-دار الكتب العلمية – بيروت-ط١- ١٤١٥ هـ.

٧٥- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي- حققه: عبد الرزاق المهدي- دار الكتاب العربي- بيروت-ط١- ١٤٢٢هـ.

٧٦- شرح الكافية الشافية لابن مالك-حققه: علي معوض، وعادل عبدالموجود-دار الكتب العلمية-ط١-١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٧٧- شرح المفصل لابن يعيش- عالم الكتب- بيروت- بدون تاريخ.

٧٨- شرح المقرب لابن عصفور- حققه/ د: علي محمد فاخر- دار الطباعة المحمدية-ط١-١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٧٩- شرح جمل الزجاجي لابن عصفور حققه: فواز الشعار- دار الكتب العلمية- ط١- ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٨٠- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام حققه: عبدالغني الدقر- الشركة المتحدة للتوزيع – دمشق-ط١-١٩٨٤م.

٨١- عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي لشهاب الدين الخفاجي- دار صادر- بيروت.

٨٢- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني للكوراني- حققه: محمد مصطفي كوكصو- كلية العلوم الاجتماعية جامعة صاقريا – تركيا- ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٨٣- غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني-دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة.
٨٤- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري- حققه: الشيخ زكريا عميرات- دار الكتب العلمية- بيروت-ط١ - ١٤١٦ هـ.
٨٥- فتحُ البيان في مقاصد القرآن لمحمد صديق خان القِنَّوجي- راجعه: عبد الله الأنصاري- المَكتبة العصرية للطباعة والنشر- بيروت- ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
٨٦- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن لزكريا الأنصاري-حققه: محمد علي الصابوني- دار القرآن الكريم، بيروت - لبنان-ط١- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣م.
٨٧- فتح الرحمن في تفسير القرآن لمجير الدين العليمي فتح الرحمن في تفسير القرآن- حققه: نور الدين طالب- دار النوادر-ط١-١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
٨٨- فتح القدير الشوكاني- دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت- ط١-١٤١٤هـ.
٨٩- فضائل القرآن للقاسم بن سلام أبو عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي-حققه: مروان العطية وآخرون- دار ابن كثير (دمشق - بيروت-ط١-١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
٩٠- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن- صححه: محمد علي شاهين- دار الكتب العلمية - بيروت-ط١- ١٤١٥ هـ.
٩١- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي- ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي- دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان.
٩٢- لسان العرب لابن منظور- دار صادر- بيروت-ط٣ - ١٤١٤هـ.
٩٣- مجاز القرآن لأبي عبيدة بن المثنى- حققه:محمد فواد سزگين-مكتبة الخانجى- القاهرة-١٣٨١هـ.
٩٤- محاسن التأويل للقاسمي- حققه:محمد باسل- دار الكتب العلمية- بيروت- ط١- ١٤١٨هـ.

٩٥- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي- حققه: يوسف علي بديوي- دار الكلم الطيب، بيروت-ط١- ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م.

٩٦- مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي- حققه/ د: حاتم صالح الضامن- مؤسسة الرسالة- بيروت-ط٢- ١٤٠٥.

٩٧- معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي-حققه/ عبد الرزاق المهدي- دار إحياء التراث العربي-بيروت-ط١-١٤٢٠ هـ.

٩٨- معانى القرآن للأخفش الأوسط حققه/ د: هدى محمود قراعة- مكتبة الخانجي، القاهرة- ط١- ١٤١١ هـ- ١٩٩٠م.

٩٩- معاني القرآن للفراء-حققه: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي-دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر- ط١.

١٠٠- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، حققه: عبد الجليل عبده شلبي- عالم الكتب – بيروت -ط١-١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

١٠١- معجم مقاييس اللغة لابن فارس- حققه:عبد السلام هارون- دار الفكر- ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

١٠٢- مفاتيح الغيب للفخر الرازي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط٣- ١٤٢٠هـ.

١٠٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي-دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.